

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨ - سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

ويقال لها سورة أصحاب الكهف . قال المهايي : سميت بها لاشتغالها على قصة أصحابه الجامعة فوائد الإيمان بالله ، من الأمن الكلي عن الأعداء ، والإغناء الكلي عن الأشياء ، والكرامات العجيبة ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهي مكية ، وقيل ^(١) إلا أولها إلى قوله (جُرُزًا) وقوله ^(٢) (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ . . .) الآية ^(٣) و (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) إلى آخر السورة . واختار الداني أنها مكية كلها . وآيها مائة وعشرة ، وقد روى في فضلها أحاديث كثيرة ، ساقها الحافظ ابن كثير وغيره .

(١) [١٨ / الكهف / ١-٨] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

(٣) [١٨ / الكهف / ١٠٧-١١٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ وِعَاجًا)
 « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ » قدمنا أن كثيراً ما تفتح السور وتختتم
 بالحمد ، إشارة إلى أنه المحمود على كل حال (لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ)^(١) وتعلماً للعباد
 أدب افتتاح كل أمر ذي بال واختتامه . وذلك بالثناء على الله تبارك وتعالى بنعمه العظمى
 ومننه الكبرى . وفي إثبات إنزال التنزيل من بين سائر نعمته العلية ، تنبيه على أنه أعظم نعمائه .
 فإنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد ، والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد . ولا شيء
 في معناه يماثله . وفي ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية ، تنبيه على عظمة
 المنزل والمنزل عليه . كما تدل عليه الإضافة الاختصاصية ، كما تقدم في سورة الإسراء .
 وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للمرسل لا كما زعمت النصارى في حق عيسى
 عليه السلام . وتعريف الكتاب للمهد . أي الكتاب الكامل الغني عن الوصف بالكمال ،
 المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيقي باختصاص اسم الكتاب به . وهو عبارة عن
 جميع القرآن . أو عن جميع المنزل حينئذ . وتأخيره عن الجار والمجرور ، مع أن حقه
 التقديم عليه ، ليتصل به قوله سبحانه « وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ وِعَاجًا » أي شيئاً من العوج ،
 باختلال في نظمه وتناف في معانيه . أو زيغ وانحراف عن الدعوة إلى الحق . بل جعله
 مزبلاً للعوج ؛ إذ جعله :

(١) [٢٨ / القصص / ٧٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (قَيْمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا)
 [٣] (مَّكِينٍ فِيهِ أَبَدًا)

« قَيْمًا » أى قِيمًا بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع . فهو وصف له بأنه مكمل لهم ، بعد وصفه بأنه كامل فى نفسه . أو قِيمًا على الكتب السالفة ، مهممنا عليها . أو متناهيًا فى الاستقامة والاعتدال . فىكون تأكيداً لما دل عليه نفي العوج . مع إفادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له ، حسبما تنبى عنه الصيغة . وانتصابه بمضمر تقديره (جملة) كما ذكرنا . على أنه جملة مستأنفة . وفيه وجوه أخر .

تنبيه :

ذهب القاشانى أن الضمير فى (لَّهُوَ) وما بعده لقوله (عِبْدِهِ) قال : أى لم يجعل لعبده زيفاً وميلاً . وجملة قَيْمًا ، يعنى مستقيماً ، كما أمرَ بقوله ^(١) (فَاسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ) أو قَيْمًا بأمر العباد وهدايتهم ، إذ التكميل يترتب على السكال . لأنه ، عليه الصلاة والسلام ، لما فرغ من تقويم نفسه وتركيتها ، أقيمت نفوس أمته مقام نفسه . فأمرَ بتقويتها وتركيتها . ولهذا المعنى سعى إبراهيم ، صلوات الله عليه ، أمة . وهذه القِيمية أى القيام بهداية الناس ، داخله فى الاستقامة للمأمور هو بها فى الحقيقة ، انتهى .
 والأظهر الوجه الأول .

وقوله تعالى « لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ » أى لينذر من خالفه ولم يؤمن به ، عذاباً شديداً عاجلاً أو آجلاً . و (البأس) : القهر والعذاب ، وخصصه بقوله (مِّن لَّدُنْهُ) إشارة إلى زيادة هوله . ولذلك عظمه بالتنكير . متعلق بـ (أَنْزَلَ) أو بعامل (قَيْمًا) « وَيُبَشِّرَ

(١) [١١ / هود / ١١٢] .

الْمُؤْمِنِينَ « أَيْ بِهِ . وَقَالَ الْقَاشَانِيُّ : أَيْ الْمُوحِدِينَ ، لِسُكُونِهِمْ فِي مَقَابِلَةِ الْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى « الَّذِينَ يَمَعُمُونَ الصَّالِحِينَ » أَيْ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْفَضَائِلِ « أَنْ لَهُمْ » أَيْ بَأْنِ لَهُمْ ، بِمَقَابِلَةِ إِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الْمَذْكُورَةَ « أَجْرًا حَسَنًا » وَهُوَ الْجَنَّةُ « مَسْكِينٍ فِيهِ أَبَدًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)

« وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا » وهم مشركو العرب في قولهم (الملائكة بنات الله) والنصارى في (دعواهم المسيح ابن الله) وخصهم بالذكر ، وكرر الإنذار متعلقاً بهم ، استعظماً لسكفرهم . وترك إجراء الموصول على الموصوف كما فعل في قوله تعالى (وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ) للإيدان بكفاية ما في حيز الصلة ، في الكفر على أقبح الوجوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ،
إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)

« مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ » أى ما لهم بالولد ، أو باتخاذ ، أو بالقول ، من علم . بل إنما يصدر عن جهل مفرط ، وتوهم كاذب ، وتقليد للآباء . لاعن علم يقين ، ويقين . ويؤيده قوله « كَبُرَتْ كَلِمَةً » أى ما كبرها كلمة « تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » وذلك لأن الولد مستحيل لامعنى له . إذ العلم اليقيني يشهد أن الوجود الواجبى إحدى الذات ، لا يماثله الوجود الممكن . والولد هو المماثل لوالده في النوع ، المكافئ له في القوة . وجملة (تخرج من أفواههم) صفة ل(كَلِمَةً) تفيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم . قال الشهاب : لأن المعنى : كبر خروجها . أى عظمت بشاعته وقباحته ، بمجرد التفوه . فما بالك باعتقاده « إِنْ

يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا» أى قولاً كذباً لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلاً . وذلك لتطابق الدليل القطعى ، والوجدان الذوقى على إحاطته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَلَمَّا كَبَبِخِمْ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)

« فَلَمَّا كَبَبِخِمْ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ »

يعنى القرآن « أَسَفًا » أى للتأسف على توليهم وإعراضهم عنه . أو متأسفًا عليهم . و(الأسف)

فرط الحزن والغضب . وفى (العناية) : لعل للترجى . وهو الطمع فى الوقوع أو الإشفاق منه .

وهى هنا استمارة . أى وصلت إلى حالة يتوقع منك الناس ذلك . لما يشاهد من تأسفك

على عدم إيمانهم . وفى النظم الكريم استمارة تمثيلية بتشبيه حاله معهم ، وقد تولوا ، وهو

أسف من عدم هدايتهم ، بحال من فارقته أحبته . فهم بقتل نفسه . أو كاد يهلك وجداً

عليهم وتحسرا على آثارهم . وسر ذلك - كما قال القاشانى - أن الشفقة على خلق الله والرحمة

عليهم من لوازم محبة الله ونتائجها . ولما كان ﷺ حبيب الله ، ومن لوازم محبوبيته محبته لله

لقوله (١) (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) وكلما كانت محبته للحق أقوى ، كانت شفقتة ورحمته على خلقه

أكثر . لكون الشفقة عليهم ظل محبته لله ، وأشد تعطفه عليهم . فإنهم كأولاده وأقاربه .

بل كأعضائه وجوارحه فى الشهود الحقيقى . فلذلك بالغ فى التأسف عليهم ، حتى كاد يهلك

نفسه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

« إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ » أى من الحيوان والنبات والمعادن « زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ »

أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى ليظهر أيهم أقهر لشهواتها ودواعيها ، وأعصى لهواها فى رضاي ،

وأقدر على مخالفتها لموافقتي .

(١) [٥ / المائة / ٥٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا)

« وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » أى تراباً مستويًا لآيات فيه . بعد ما كان يبهج النظر ، لا شيء فيه يختلف ، رُبِّي ووهاداً . أى نفنيها وما عليها ولا نبالي . وفى الآية تسليمة له صلوات الله عليه . كأنه قيل لا تحزن عليهم فإنه لا عليك أن يهلكوا جميعاً . لأننا نخرج جميع الأسباب من العدم إلى الوجود للابتلاء . ثم نفنيها ، ولا حيف ولا نقص . أو لا تحزن فإننا مفنون ذلك ومجازون لهم بحسب أعمالهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا » أى آية ذات عجب . على حذف مضاف . أو وصفاً بالمصدر مبالغة و (مِنْ آيَاتِنَا) حال منه و (أَمْ) للاستفهام التقريرى بمعنى الهمزة . أى أنهم من بين آياتنا آية عجيبة . وجعلها منقطعة مقدره بـ (بل والهمزة ، والاستفهام للإنكار) - أى إنكار حسابهم آية عجيبة بالنسبة إلى آياته الكبرى - فيه بُعد . لأن سياق النظم الكريم ، أعنى سوقها مفصلة منوها بها ، ما هو إلا لتقرير التعجب منها . و (الكهف) الغار الواسع فى الجبل . و (الرقيم) اسم كلبهم . وقيل لوح رقم فيه حديثهم ، وجعل على باب الكهف . وقيل الجبل أو الوادى ، أقوال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِذْ أَوْىُّ الْقِتْمِيَّةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا

مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)

« إِذْ أَوْىُّ الْقِتْمِيَّةُ إِلَى الْكَهْفِ » أى خوفاً من إيذاء الملك على ترك عبادة الأوثان

والذبح لها . وإيثارُ الإظهار على الإضمار لتحقيق حلهم بتغليبهم جانب الله على جانب أهويتهم في حال شبابهم « فَقَالُوا رَبَّنَا » أى من ربانا بنعمة إيثار جانبه على جانب أنفسنا « ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » أى من خَزَائِنِكَ وهى المغفرة والرزق والأمن من الأعداء « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا » وهو اختيار الكهف لمفارقة الكفار « رَشَدًا » وهو توحيدك وعبادتك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَضْرَبْنَا عَلَىٰٓ ءِذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا)

« فَضْرَبْنَا عَلَىٰٓ ءِذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا » أى أغمناهم نومة ثقيلة لا ينجسهم صفيير الخبير، ولا دعوة الداعى الخبير ، فى الكهف سنين ذوات عدد . أى كثيرة أو معدودة . قال الشهاب : (ضربنا) مستعار استعارة تبعية لمعنى أغمناهم إنامة لا ينتبه منها بالصياح . لأن النائم ينتبه من جهة سمعه . وهو إما من (ضربت القفل على الباب) أو (ضربت الخباء على ساكنه) شُبِّهَ ، لاستغراقه فى نومه حتى لا ينتبه بمنبهه ، بمن كان خلف حجب مانعة من وصول الأصوات إليه . وقيل إنه استعارة تمثيلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا)

« ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ » أى أيقظناهم إيقاظاً يشبه بعث الموتى « لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا » أى لتعلم واقعاً ما علمنا أنه سيقع . وهو أى الحزبين المختلفين فى مدة لبثهم ، أشد إحصاء ، أى إحاطة وضبطاً لغاية مدة لبثهم فيعلموا قدر ما حفظهم الله بلا طعام ولا شراب ، وأمنهم من العدو ، فيتم لهم رشدهم فى شكره ، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَا لَهُمُ هُدًى)

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ » شروع في تمام بسط قصتهم وتفصيلها . و (الحق)

الأمر المطابق للواقع « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ » أي بوحدانيته إيماناً يقينياً علمياً على

طريق الاستدلال ، مع اتفاق قومهم على الشرك « وَزِدْنَا لَهُمُ هُدًى » أي بترجيح جانب الله على

جانب أنفسهم . قال ابن كثير : الفتية - وهم الشباب - أقبل للحق وأهدى للسبيل ، من

الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل . ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى

ولرسوله ﷺ شباباً . وأما عامة شيوخ قريش فاستمروا على ضلالهم ولم يسلم منهم إلا القليل .

وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً . وقد يروى عن هؤلاء الفتية

روايات مضطربة . أوثقها أن هؤلاء ، كان قدم إلى مدينتهم من يدعو إلى الإيمان بالله تعالى ،

وبما جاء به عيسى عليه السلام . ممن كان على قدم الحواريين . فاستجاب لذلك الفتية النوة

بهم . وخاموا الوثنية التي عليها قومهم وفرّوا بدينهم خشية أن يقتلهم ملكهم عن دينهم

أو يقتلهم . فاستخفوا عنه في الكهف . واعتزلوا فيه يعبدون الله تعالى وحده . ثم روى أن

الملك طلبهم . فقيل : دخلوا هذا الكهف ، . فقال قومهم : لا نريد لهم عقوبة ولا عذاباً

أشد من أن نردم عليهم هذا الكهف ، فبنوه عليهم ثم ردموه . ثم إن الله بعث عليهم ملكا

على دين عيسى . فرفع ذلك البناء الذي كان ردم عليهم . فقال بعضهم لبعض : كم لبثتم ؟

فقالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم حتى بلغ (فَأَبْمَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى

الْمَدِينَةِ) وكان ورق ذلك الزمان لدولة أهله . فأرسلوا أحدهم يأتهم بطعام . فلما ذهب ليخرج

رأى على باب الكهف شيئاً أنكره فأراد أن يرجع . ثم مضى حتى دخل المدينة . فأنكر

ما رأى . ثم أخرج درهما فنظروا إليه فأنكروه وأنكروا الدرهم . وقالوا : من أين لك هذا ؟

هذا من ورق غير هذا الزمان .

واجتمعوا عليه يسألونه . فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم . فأخبره بأمره . فاستبشروا به وبأصحابه . وقيل له : انطلق فأرنا أصحابك . فانطلق وانطلقوا معه ليربهم . فدخل قبل القوم فضرب على آذانهم فد (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) هذا ما أورده ابن جرير أولاً ، وفيه كفاية عن غيره .

وسند ذكر في آخر نبئهم ما عند أهل الكتاب النصارى من شأنهم . وقد قيل إنهم كانوا في مدينة يقال لها (طرسوس) من أعمال طرابلس الشام . وفيها من الآثار القديمة العهد ، في جبل بها ، ما يزعم أهلها زعماً متوارثاً ، أنه لأصحاب الكهف . والله أعلم .

ثم بين تعالى صبرهم على مخالفة قومهم ، ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِن دُونِهِ ۗ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)

« وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى قويناها بالصبر على المجاهدة . وشجعناهم على محاربة الشيطان والفرار بالدين إلى بعض الغيران . ومخالفة النفس وهجر المألوفات الجسمانية واللذات الحسية والقيام بكلمة التوحيد . وقيل جسرناهم على القيام بكلمة التوحيد ، وإظهار الدين القويم ، والدعوة إلى الحق عند ملكهم الجبار . لقوله تعالى : « إِذْ قَامُوا » أى بين يديه غير مباين به . و (إذ) ظرف لـ (ربطنا) . قال الشهاب : (الربط) على القلب مجاز عن الربط بمعنى الشد المعروف . أى استعمارة منه . كما يقال ، رابط الجأش . لأن القاق والخوف يزرعج به القلب من محله ، كما قال تعالى (١) : (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) فشبّه القلب المطمئن لأمره ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٠] .

بالحيوان المربوط في محلّ . وعدّى (ربط) بـ (على) وهو متمدّ بنفسه ، لتزيله منزلة اللازم « فَقَالُوا رَبَّنَا » الذي نعبد « رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » بحيث يدخل تحت ربوبيته كل معبود سواه « لَنْ نَدْعُوهُ » أى نعبد « مِنْ دُونِهِ » إلهاً لقد قلنا إذا شططاً . أى ذا بعدٍ عن الحق ، مفرط في الظلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءِالِهَةً ، لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَنٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

« هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءِالِهَةً » عملوا أو نحتوا لهم آلهة ، فيفيد أنهم عبدوها . وفي الإشارة تحقيرهم « لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ » أى على عبادتهم أو إلهيتهم أو تأثيرهم « بِسُلْطَنٍ بَيِّنٍ » أى حجة بيينة وبرهان ظاهر . فإن الدين لا يؤخذ إلا به . قال القاشانى : دليل على فساد التقليد ، وتسكيت بأن إقامة الحجة على إلهية غير الله ، وتأثيره وجوده ، محال . كما قال (١) : (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ) أى أسماء بلا مسميات ، لكونها ليست بشىء « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى لا مساوى له في الظلم والكفر . إشارة إلى أنهم لا يأتون ببرهان . فهم ظالمون في حق الله ، لافتراءهم عليه بأن في رتبته العليا شركاء يساوونه فيها . ثم خاطب بعضهم بعضاً بقولهم :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدًا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا)

« وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدًا إِلَى الْكَهْفِ » أى وإذا اعتزلتم القوم ،

(١) [٥٣ / النجم / ٢٣] .

بترك متابعتهم ، من إفراط ظلمهم ، وهو موجب بغضهم . واعتزلتم معبوداتهم غير الله ، فإنهم كانوا يعبدونهم صريحاً أو في ضمن عبادتهم له ، فأووا إلى الكهف الذي لا يطلعون عليكم فيه ، فلا يؤذونكم ، ولا تحافوا ، من السكون فيه ، فوات الطعام والشراب . فإنكم إذا التجأتم إلى الله بعد ما دعوتموه بنشر الرحمة وتهيئة الرشد « يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ » أى ما يفتى عن الطعام والشراب ، بالإمدادات الملكوتية والتأييدات القدسية « وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ » وهو اختيار جانبه على جانبكم « مَرَفَقًا » أى ما تنتفعون به . قال المهايى : يرفق بنفسوسكم فيعطيه من لذات عبادته ما ينسبها سائر اللذات . على أن لذاتها لم تخل من أذية . وهذه خالية عن الأذيات كلها . وجزمهم بذلك لنصوع يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى .

تفسيره :

زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقاً . وهو خطأ . فإنها تشير إلى التأمى بأهل الكهف في الاعتزال ، إذا اضطهد المرء في دينه وأريد على الشرك . ومن رد الاحتجاج بهذه الآية على تفضيل العزلة ، الإمام الغزالي حيث قال في (إحيائه) : وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون . وإنما اعتزلوا الكفار . أى ولاريب في مشروعيتها فراراً من الفتن .

فقول السيوطى في (الإكليل) : في الآية مشروعية العزلة والفرار من الظلمة وسكون الغيران والجبال عند فساد الزمان - كلام مجمل لا بد من التفصيل فيه . وأى عصر خلا من الفساد ؟ . وسياق الآية في الاضطهاد فحسب ، فافهم ولا تغل . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ،

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا)
 « وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ » أى صعدت عند طلوعها « تَزَاوَرُ » أى تيميل « عَن
 كَهْفِهِمْ » أى بابه « ذَاتَ الْيَمِينِ » أى يمين الكهف « وَإِذَا غَرَبَتْ » أى هبطت للغروب
 « تَقْرُضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ » أى تقطعهم وتعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال « وَهُمْ
 فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ » أى سعة من الكهف يصل إليهم الهواء من كل جانب دون أذى الشمس .
 وقد دلت الآية على أن باب ذلك الكهف كان مفتوحًا إلى جانب الشمال . فإذا طلعت الشمس
 كانت على يمين الكهف . وإذا غربت كانت على شماله . فيقع شعاعها على جانبه . يحلل عفوته
 ويمدل هواه . ولا يقع عليهم فيؤذيهم . قال الشهاب : (تقرضهم) من القرص بمعنى القطع .
 أى قطع الاتصال بهم لثلاث تغير أبدانهم . وقولُ الفارسيّ إنه من قرص الدراهم ، والمعنى أنها
 تعطيمهم من تسخينها شيئًا ثم يزول بسرعة كالقرص المسترد - مردود ، بأنه لم يسمع له ثلاثي .
 وفى (الروض الآنف) تقرضهم كناية عن تعدل بهم . وقيل : تتجاوزهم شيئًا . من
 (القرض) وهو القطع . أى تقطع ما هنالك من الأرض . وقوله تعالى « ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ
 اللَّهِ » أى إرشادهم إلى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء ، وشعاع الشمس والريح تدخل عليهم
 فيه ، لتبقى أبدانهم ، آية من آياته الدالة على عنايته وتوفيقه للمخلصين « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ » أى
 إلى الحق بالتوفيق له « فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ » أى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره إليه
 « فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا » أى ناصرًا يلى أمره فيحفظه من الضلال « مُرْسِدًا » أى يهديه
 إلى ما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَهُمْ رُفُودٌ ، وَتَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ،
 وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا
 وَلَمَلَكْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)

« وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ » خطاب لكل أحد . أى تظنهم ، يا مخاطب ، أيقاظًا لا تفتاح أعينهم ، وهم رقود مستغرقون فى النوم ، بحيث لا ينفهم الصوت . قال ابن كثير : ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لثلا يسرع إليها البلى . فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقي لها . وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً . ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد . كما قال الشاعر :

يَنَامُ بِأَحْدَى مَقْلَتَيْهِ وَيَبْقَى بِأُخْرَى الرِّزَايَا فَيُوقِظُ نَائِمًا

و (أَيْقَاظًا) جمع يَقِظُ ويقظان . و (رُقُودٌ) جمع راقد . وما قيل أنه مصدر أطلق على الفاعل واستوى فيه القليل والكثير كركوع وقعود ، لأن فاعلاً لا يجمع على فعول - مردود بما نص عليه النحاة كما صرح به فى (المفصل) و (التسهيل) « وَنَقَلْبُهُمْ » أى فى رقدتهم « ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ » أى لثلا تناف الأرض أجسادهم « وَكَلْبُهُمْ بَسِطُ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ » أى بفناء الكهف أو الباب . وقد شملت بركتهم كلبهم . فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، قال ابن كثير : وهذا فائدة صحيحة الأخيار . فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وقد قيل إنه كان كلب صيد لهم ، وهو الأشبه . واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها . بل هى مما نهى عنه . فإن مستندها رجم بالغيب . ووجود الكلب على هذه الحالة من العناية بهم . فكما حفظهم بالتقلب عن إهلاك الأرض ، حفظهم عن الأعداء بكنب ، ليها بومهم مع هيبه ذاتية لهم . كما قال تعالى « لَيَؤْطَلَمَنَّ عَلَيْهِمْ » أى فنظرت إليهم ، مع غاية قوتك فى مكافحة الحروب « لَوَلَّيْتَهُمْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمْتَهُمْ مِنْهُمْ رُغْبًا » أى خوفًا يملأ صدرك ، لا ألبسوا من الهيبه . فلا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم وخافهم . وذلك - كما قال ابن كثير - لثلا يدنو منهم أحد ولا تسمهم يد لاس ، حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضى رقدتهم التى شاءها تبارك وتعالى فيهم . لئلا فى ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ ،
قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا
فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا)

« وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ » أى وكما أنعمناهم تلك النومة ، بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم
وأبشارهم ، لم يفقدوا من هياتهم وأحوالهم شيئاً ، ادّكاراً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً .
قال ابن كثير : وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين . وقوله تعالى « لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ » أى
ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم ، فيعتبروا ، ويستدلوا على عظم قدرة الله
تعالى ، ويزدادوا يقيناً ، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرّموا به . أفاده الزمخشري .
وبه يتبين أن البعث علة للتساؤل . ومن جعل اللام للعاقبة ، لحظ أن الغرض من فعله
تعالى إظهار كمال قدرته « قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ » أى رقدتم . اعترافاً بجهل نفسه
أو طلباً للعلم من غيره ، وإن لم يظهر كونه على اليقين « قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ »
قال ابن كثير : كأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار ، واستيقاظهم كان في آخر نهار .
ولهذا قالوا : أو بعض يوم . وقال المهايى : فمن نظر إلى أنهم دخلوا غدوة وانتبهوا عشية ،
ظن أنهم لبثوا يوماً ، ومن نظر إلى أنه قد بقيت من النهار بقية ، ظن أنهم لبثوا بعض يوم .
فهم مع ما أعطوا من الكرامات يتكلمون بالظن . فالولى يجوز أن يتكلم بالظن فيما ليس
من الأصول ، ويجوز أن يخطئ . وقال الزمخشري : جواب مبنى على غالب الظن . وفيه
دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب . وأنه لا يكون كذباً . وإن جاز أن يكون
خطأً .

« قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ » إنكار عليهم من بعضهم ، وأن الله أعلم بعبدة لبثهم .

كَانَ هَؤُلَاءِ قَدْ عَمِلُوا بِالْأَدْلَةِ ، أَوْ بِالْهَامِ مِنْ اللَّهِ ، أَنْ الْمُدَّةَ مِتَطَاوَلَةَ ، وَأَنْ مِقْدَارَهَا مَبْهَمٌ .
فَأَحْلَوْا تَعْيِينَهَا عَلَى رَبِّهِمْ . « فَأُبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ » أَى الْمَأْخُذَةَ لِلتَّرْوِدِ .
و (الْوَرِقِ) الْفِضَّةُ « إِلَى الْمَدِينَةِ » أَى الَّتِي فَرَرْتُمْ عَنْهَا « فَلْيَنْظُرْ أَهْيَأَ أَزْكَى طَعَامًا »
أَى أَطِيبٌ . « فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ » أَى فِي الْمُبَايَعَةِ وَاخْتِيَارِ الطَّعَامِ . أَوْفَى .
أَمْرَهُ بِالْتَّخْفِ ، حَتَّى لَا يَشْعُرَ بِحَالِكُمْ وَدِينِكُمْ « وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا)

« إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ » يَطْلَعُوا عَلَى مَكَانِكُمْ « يَرْجُمُوكُمْ » أَى يَقْتُلُوكُمْ بِالْحِجَارَةِ .
« أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ » أَى يَدْخُلُوكُمْ فِيهَا بِالْإِكْرَاهِ الْعَنِيفِ « وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا »
أَى إِذَا صَرْتُمْ إِلَى مِلَّتِهِمْ . قَالَ الْقَاسِمَانِيُّ : ظُهُورِ الْعَوَامِّ ، وَاسْتِيلَاءِ الْمَقْلَدَةِ وَالْحَشْوِيَّةِ الْمَحْجُوبِينَ ،
وَأَهْلِ الْبَاطِلِ الْمَطْبُوعِينَ ، وَرَجْمِهِمْ أَهْلَ الْحَقِّ ، وَدَعْوَتِهِمْ إِيَّاهُمْ إِلَى مِلَّتِهِمْ - ظَاهِرٌ . كَمَا كَانَ
فِي أَوَائِلِ الْبَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ .

لطائف :

الأولى - قَالَ الزُّخْمَرِيُّ : فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ وَصَلُوا قَوْلَهُمْ (فَأُبْعَثُوا) بَتْدَا كَرِ حَدِيثِ
الْمُدَّةِ ؟ قُلْتَ : كَأَنَّهُمْ قَالُوا رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِذَلِكَ . لَا طَرِيقَ لَكُمْ فِي عِلْمِهِ . نَحْذُوا فِي شَيْءٍ آخَرَ
مِمَّا بِهِمْكُمْ . انْتَهَى .

وَرَأَى الْمُهَاجِمِيُّ أَنَّ قَوْلَهُمْ (فَأُبْعَثُوا) مِنْ تَمَتَّةِ حَدِيثِ الْمُدَّةِ . قَصَدَ بِهِ تَفْهِيمَهَا . كَأَنَّهُمْ
لَمَّا أَحْلَوْا تَعْيِينَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِمْ (رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْتُمُكُمْ) قَالُوا هَذِهِ الْإِحَالَةُ لَا تَمْنَعُ مِنْ
طَلَبِ الْعِلْمِ بِالْمُدَّةِ . وَلَوْ فِي ضَمَنِ أَمْرٍ آخَرَ ، فَاطْلُبُوهُ فِي ضَمَنِ حَاجَةٍ لَنَا . وَهِيَ أَنْ تَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ

بورقكم هذه لثلاثا نحوج إلى السؤال عن المدة. لاسيما في مكان يمنع من الإجابة إلى المسؤول به،
فيفضى إلى الهلاك .

الثانية - قال في (الإكليل) : قوله تعالى (فَابْتِئُوا) الآية ، أصل في الوكالة والنيابة.
قال ابن العربي : وهي أقوى آية في ذلك .

قال السكيا : وفيها دليل على جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها والأكل من الطعام
بينهم بالشركة ، وإن تفاوتوا في الأكل .

الثالثة - دلّ قوله تعالى عنهم (فَلْيَنْظُرْ آيَهُمْ أَزْكَىٰ طَعَامًا) على مشروعية استجداء
الطعام واستطابته بأقصى ما يمكن ، لصيغة التفضيل . فإن الغذاء الأزكى المتوفر فيه الشروط
الصحية يفيد الجسم ولا يتعبه ولا يكدره . ولذلك يجب طبياً الاعتناء بجودته وتركيبته ،
كما فصل في قوانين الصحة .

الرابعة - قال الرازي : (الرجم) بمعنى القتل ، كثير في التنزيل كقوله (١) (وَلَوْلَا رَهْطُكَ
لَرَجَمَنَّكَ) وقوله (٢) (أَنْ تَرَجُمُونَ) وأصله الرمي ، أى بالرجم وهي الحجارة . ولا يبعد
إرادة الحقيقة في مواده كلها ، زيادة في التهويل . فإن الرجم أخبث أنواع القتل . وقوله تعالى :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ
لَأَرْبَبٌ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتَنَا
رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا)
« وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ » أى كما أنعمناهم وبمنعناهم لما في ذلك من الحكمة ، أطلعنا
عليهم أهل المدينة حتى دخلها من بعثوه للطعام ، وأخرج ورقهم المتقدمة العهد « لِيَعْلَمُوا »
(١) [١١ / هود / ٩١] . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٠] .

أَنَّ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا « أَى لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أَطَاعَنَاهُمْ عَلَىٰ حَالِهِمْ ، أَنْ وَعَدَ اللَّهُ بِالْبَيْعِ حَقًّا . لِأَنَّ حَالَهُمْ فِي نَوْمَتِهِمْ وَانْتِبَاهَتِهِمْ بَعْدَهَا كِحَالِ مَنْ يَمُوتُ ثُمَّ يَبْعَثُ » وَأَنَّ السَّاعَةَ « أَى الْمَوْعُودُ فِيهَا بِالْبَيْعِ » لِأَرْيَبَ فِيهَا « إِذْ لَا يَدُ مِنْ الْجِزَاءِ بِمَقْتَضَى الْحِكْمَةِ . ثُمَّ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ بَعْدَ وَفَاتِهِمْ ، وَعِنَايَةِ قَوْمِهِمْ بِحِفْظِ أَجْدَانِهِمْ ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ « إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَاهُمْ بُنْيَانًا » أَى عَلَىٰ بَابِ كَهْفِهِمْ بُنْيَانًا عَظِيمًا . كَالْحُنُقَاهَاتِ وَالْمَشَاهِدِ وَالْمَزَارَاتِ الْمَبْنِيَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ وَ (إِذْ) عَلَى مَا يَظْهَرُ لِي ، ظَرْفٌ ل (إِذْ كَر) مَقْدَرًا . وَالجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ لِيُبَيِّنَ خَتْمَ نَبِيِّهِمْ بِمَا جَرَى بَعْدَ مَمَاتِهِمْ ، إِثْرًا مَأْجُوزًا مِنْ نَبِيِّهِمْ بَعْدَ بَعْثِهِمْ وَالْإِعْثَارِ عَلَيْهِمْ . وَجَعَلَهُ ظَرْفًا ل (أَعْتَرْنَا) أَوْ لغيرِهِ مِمَّا ذَكَرُوا - لَيْسَ فِيهِ قُوَّةُ ارْتِبَاطٍ وَلَا دَقَّةٌ مَعْنَى وَقَوْلِهِ تَعَالَى (فَقَالُوا) تَفْسِيرٌ لِمُتَنَازِعٍ فِيهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ، « رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ » جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ . إِمَّا مِنْ اللَّهِ ، رَدًّا عَلَى الْخَائِضِينَ فِي حَدِيثِهِمْ مِنْ أَوْلَئِكَ الْمُتَنَازِعِينَ فِيهِمْ عَلَى عَهْدِهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَوْ مِنْ كَلَامِ الْمُتَنَازِعِينَ فِي عَهْدِهِمْ . كَأَنَّهُمْ تَذَاكَرُوا أَمْرَهُمُ الْعَجِيبَ وَتَحَاوَرُوا فِي أَحْوَالِهِمْ وَمُدَّةِ لَبْسِهِمْ . فَلَمَّا لَمْ يَهْتَدُوا أَحْوَالًا حَقِيقَةً نَبَّيَهُمْ إِلَيْهِ تَعَالَى « قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ » أَى مِنَ الْمُتَنَازِعِينَ ، وَهُمْ أَرْبَابُ الْغَلْبَةِ وَنَقُودُ الْكَلِمَةِ « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا » أَى نَصَلِي فِيهِ ، تَبْرَكَ بِهِمْ وَبِمَكَانِهِمْ .

تنبیه :

قال ابن كثير : حكى في القائلين ذلك قولان (أحدها) أنهم المسلمون منهم (والثاني) أنهم المشركون . والظاهر أنهم هم أصحاب النفوذ . ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر . لأن النبي ﷺ قال ^(١) : (لمن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم وصلحهم مساجد) يحذر ما فعلوا . انتهى .

(١) أخرجه البخارى في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٥٥ - باب حدثنا أبو اليمان ، حديث

٢٨٥ ، ٢٨٦ ، عن عائشة وعبد الله بن عباس .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٩ و ٢٢ (طبعتنا) .

وعجيب من تردده في كونهم غير محمودين ، مع إرادته الحديث الصحيح بعده ، المسجل بلعن فاعل ذلك . وهو أعظم ما عنون به على الغضب الإلهي والمقت الرباني . والسبب في ذلك أن البناء على قبر النبي والولي مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه . ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة . وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك ؟ كما قال ابن عباس في قوله تعالى (١) (وَقَالُوا لَا تَنْدَرُنَّ ۗ الْهَيْهَاتَكُمْ وَلَا تَنْدَرُنَّ ۗ وَدَا وَلَا سِوَاءًا وَلَا يَفُوتَ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا) قال : هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قومهم . فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم . فلما طال عليهم الأمد عبدوهم . فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى ، قادم ذلك إلى عبادة الأصنام . قال الإمام محمد بن عبد الهادي عليه الرحمة ، في كتابه (الصارم المنكي) بعد إرادته ما تقدم : يوضحه أن الذين تكلموا في زيارة الموتى من أهل الشرك ، صرّحوا بأن القصد هو انتفاع الزائر بالزور . وقالوا : من تمام الزيارة أن يعلق همته وروحه بالميت وقبره . فإذا فاض على روح الميت من العلويات الأنوار ، فاض منها على روح الزائر بواسطة ذلك التعلق والتوجه إلى الميت . كما ينعكس النور على الجسم المقابل للجسم الشفاف ، بواسطة مقابلته .

وهذا المعنى بعينه ، ذكره عباد الأصنام في زيارة القبور . وتلقاه عنهم من تلقاه ممن لم يحط علماً بالشرك وأسبابه ووسائله . ومن هاهنا يظهر سر مقصود النبي ﷺ بنهيه عن تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والسرج . ولعنه فاعل ذلك وإخباره بشدة غضب الله عليه . ونهيه عن الصلاة إليها ، ونهيه عن اتخاذ قبره عيداً . وسؤاله به تعالى أن لا يجعل قبره وثناً يعبد . فهذا نهيه عن تعظيم القبور . وذلك تعليمه وإرشاده للزائر أن يقصد نفع الميت والدعاء له والإحسان إليه ، لا الدعاء به ولا الدعاء عنده .

(١) [٧١ / نوح / ٢٣] .

ثم قال عليه الرحمة : ومن ظن أن ذلك تعظيم لهم فهو غايط جاهل . فإن تعظيمهم إيمانهم بطاعتهم واتباع أمرهم ومحبتهم وإجلالهم . فمن عظمهم بما هو عاص لهم به ، لم يكن ذلك تعظيماً . بل هو ضد التعظيم . فإنه متضمن مخالفتهم ومعصيتهم . فلو سجد العبد لهم أو دعاهم من دون الله أو سبّحهم أو طاف بقبورهم واتخذ عليهم المساجد والمرج ، وأثبت لهم خصائص الربوبية ، وزههم عن لوازم العبودية ، وادعى أن ذلك تعظيم لهم - كان من أجهل الناس وأضلهم . وهو من جنس تعظيم النصارى للمسيح حتى أخرجوه من العبودية . وكل من عظم مخلوقاً بما يكرهه ذلك المعظم وينغضه ، ويمقت فاعله ، فلم يعظمه في الحقيقة ، بل عامله بضد تعظيمه . فتعظيم الرسول ﷺ أن تطاع أو امره وتصدق أخباره ولا يُقدّم على ما جاء به غيره . فالتعظيم نوعان : أحدهما ما يحبه المعظم ويرضاه ويأمر به ويثنى على فاعله ، فهذا هو التعظيم في الحقيقة . والثاني ما يكرهه ويبغضه ويذم فاعله ، فهذا ليس بتعظيم بل هو غلوّ منافٍ للتعظيم . ولهذا لم يكن الرافضة معظمين لعليّ ، بدعواهم الإلهية والنبوة أو العصمة ونحو ذلك . ولم يكن النصارى معظمين للمسيح بدعواهم فيه ما ادعوا . والنبي ﷺ . قد أنكر على من عظمه بما لم يشرعه . فأنكر على معاذ سجوده له وهو محض التعظيم . وفي المسند^(١) بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا محمد! يا سيدنا! وابن سيدنا! وخيرنا! وابن خيرنا! فقال رسول الله ﷺ (عليكم بتقواكم ، ولا يستهويكم الشيطان . أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله . ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزّ وجلّ) . وقال ﷺ^(٢) : (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله) وكان يكره من أصحابه أن يقوموا له إذا رأوه . ونهاهم أن يصلوا خلفه قياماً وهو مريض . وقال^(٣) : (إن كدتُم آتفاً لتفعلون فعل فارس والروم .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثالث .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٣١ - باب رجم الجلي في الزنى إذا

أحصنت ، حديث رقم ١٢١٤ ، عن عمر بن الخطاب ، من خطبته الطويلة في آخر حجة حجها .

(٣) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٨٤ (طبعنا) .

يقومون على ملوكهم) وكل هذا من التعظيم الذى يبغضه ويكرهه . ولقد غلا بعض الناس في تعظيم القبور حتى قال : إن البلاء يندفع عن أهل البلد أو الإقليم ، بمن هو مدفون عندهم من الأنبياء والصالحين . وهو غلوّ مخالف لدين المسلمين ، مخالف للكتاب والسنة والإجماع . وللبحث تمة مهمة فانظره . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَلْمَهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُنَارِرَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

« سَيَقُولُونَ » أى الخائضون في قصتهم على عهد النبي ﷺ من أهل الكتاب الذين لا علم لهم بالحقيقة « ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ » أى بعض آخر منهم « خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ » أى رمياً وتلفظاً بالذى غاب عنهم . يعنى ظناً خالياً عن اليقين . قال ابن كثير : كالذى يرى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد « وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ » حكاية لقول فريق آخر كان يرى عدتهم هذه « قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَلْمَهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ » أى ممن أطلعه الله عليه « فَلَا تُنَارِرَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا » أى لا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف ، إلا جدالاً ظاهراً ليناً غير متعمق فيه . وذلك على قدر ما تعرض له التنزيل الكريم من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الإجمالى ، وتفويض العلم إلى الله سبحانه ، من غير تجهيل لهم ، ولا تعنيف بهم ، فى الرد عليهم كما قال (١) (وَجَدِلْتُمُ الْكُفْرَانَ بِالْبُرْهَانِ وَإِن كُنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ)

(١) [١٦ / النحل / ١٢٥] .

في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة . قيل : المهاراة المجادلة . وقيل بالفرق . فالمجادلة الحاجة مطلقاً . والمهاراة الحاجة فيما فيه مرية أى تردد ، لأنها من (مريت الناقة) إذا مسحت ضرعها للحليب « وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا » أى لا تسأل أحداً منهم عن نبئهم . لأن السؤال إما للاسترشاد ، أو للتعنت والمحاوررة . ولا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه رجماً بالغيب . من غير استناد إلى كلام معصوم . والتعنت للرد على الخصم وتزييف ما عنده ، ينافي مكارم الأخلاق . والمعنى : جاءك الحق الذى لا مرية فيه ، فهو المقدم الحاكم على ما تقدمه من الكتب والأقوال .

تنبيهات :

الأول - ذهب أكثر المفسرين إلى أن قول الخائضين الأخير ، وهو أنهم سبمة وثامنهم كلهم ، هو الحق . لأنه لم يوصف بكونه رجماً بالغيب كما وصف الأولان . ولتخصيصه بالواو في قوله (وَثَامِنُهُمْ) وهى الواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للفكرة ، لإفادة تأكيد لصوق الصفة بالموصوف . والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر . وأنه لا عدد وراءه . كما قال ابن عباس : حين وقعت الواو انقطعت العدة . وأقول : لا يخفى ضعف التمسك بهذين الوجهين لتقوية القول الأخير . فإن عدم وصفه بالرجم بالغيب إنما هو لدلالة ما قبله عليه . وفى إعادته إخلال بالبلاغة . ومسألة الواو أوهى من بيت العنكبوت . فإن مثل هذا النزاع لا يكتفى بحسمه بمثل هذا الإيحاء الدقيق القريب من الإلغاز . كما لا يخفى على من تتبع مواقع حسم الشبه في الكتاب والسنة وكلام البلغاء . لاسيما والواو من المحكى لامن الحكاية . فيدل على ثبوته عند القائل لا عند الله ، فلا يكون من الإيحاء فى شىء . وجواب بعضهم بأنه تعالى لما حكى قولهم قبل أن يقولوه هكذا ، فنفهم أن يقولوه إذا أخبروا عنه بهذه العبارة ، وبأنه لا مانع أن تكون من الحكاية - بعيداً غاية البعد ، وتكلف ظاهر ، وإغراب فى القول . ثم قيل : إن هذه الجملة لاتعين للوصفية . لجواز كونها حالاً من النكرة ، لأن اقترانها بالواو مسوغ . ويجوز أن يكون خبراً عن المبتدأ المحذوف . لأنه يجوز فى مثله إيراد الواو

وتركها . على أنه إنما يتم ما ذكره لو لم يُتبع قولهم بقوله تعالى (قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ) فإن في تأثره للأقوال المتقدمة كلها ، برهاناً ظاهراً على أنهم لم يهتدوا لعدتهم ، وإرشاداً إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام ، رد العلم إليه تعالى . وإشارةً إلى أنه لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم بين وبرهان نير . وإنه إذا أوقفنا على الفيصل قلنا به ، وإلا وقفنا . وقد تأكد هذا بقوله سبحانه بعده (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) فإن فيه (دلالة على أنه يعلمهم البعض ممن لم يشأ الحق تعيينه . وهو إيمانبي ، أو من كان في مدتهم ، أو من تقب عن نبئهم بأثارة صحيحة أو تلق عن المعصوم . وفيه إعلام بأنه لم يضرب على الناس بسد من جهالة شأنهم .

وبالجملة ، فالنظم الكريم ، بأسلوبه هذا ، لا يدل على أن الأخير هو الحق كما علمت . وأما ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل . كانوا سبعة - فهو من الموقوف عليه . ولو رفع إلى النبي ﷺ وصح سنده لقلنا به على أنه اختلف على ابن عباس في عدتهم . فروى عنه أنهم ثمانية ، حكاه ابن إسحق عن مجاهد عنه . وروى عنه سبعة . وهو حكاية قتادة وعكرمة عنه . ثم رأيت الرازي نقل عن القاضي أنه قال : إن كان - ابن عباس - قد عرفه ببيان الرسول ، صح . وإن كان قد تعلق بحرف الواو فضعيف . انتهى . هذا ما ظهر لي الآن .

وبعد كتابتي لما تقدم بمدة ، وقفت على نبئهم في (طبقات الشهداء المسيحيين) وأن عدتهم سبعة عندهم كما ستراه في آخر الآيات فيهم . فسمح لي أن ابن عباس إنما جزم بما جزم به ، مما قوى عنده من إشارة الآية ، كما ذكره أولئك الأكثرون ، ومن تواتر عدتهم من قومهم وممن أثر عنهم . ثم حققه وصدقه عدم النكير فيه . وكذلك جزم بمثله الإمام تق الدين ابن تيمية رحمه الله ، حيث قال في (قاعدة له في التفسير) : اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام - مقام حكاية الأقوال وتعليم ما ينبغي في مثل هذا . فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة

أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث . فدل على صحته . إذ لو كان باطلا لرده كما ردها . ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته . فيقال في مثل هذا (قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ) فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه . فبهذا قال (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءَ ظَهْرٍ) أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك . فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب . فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل . ويذكر فائدة الخلاف وثمرته ، لتلايق النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فيشتغل به عن الأهم . فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها ، فهو ناقص . إذ قد يكون الصواب في الذي تركه . أو يحكى الخلاف ويبطله ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، فهو ناقص أيضاً . انتهى كلامه رحمه الله ، وهو الفصل في هذا المقام .

الثاني - قال الرازي : ذكروا في فائدة الواو في قوله (وَثَامِنُهُمْ) وجوهاً :

الأول - ما ذكروه أنه يدل على أن هذا القول أولى من سائر الأقوال . وقد عرفت

ما فيه .

وثانيها - أن السبعة عند العرب أصل في المبالغة في العدد . وإذا كان كذلك ، فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظاً يدل على الاستئناف ، فقالوا : وثمانية . فجاء هذا الكلام على هذا القانون . قالوا : ويدل عليه نظيره في ثلاث آيات ، وهي قوله ^(١) : (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة . وقوله ^(٢) : (حَتَّىٰ آ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة . وقوله ^(٣) : (تَمَيَّتْ وَأَبْكَرًا) لأن قوله : (وَأَبْكَرًا) هو العدد الثامن مما تقدم . والناس يسمون هذه الواو . (وَوَالثَّمَانِيَةَ) ومعناه ما ذكرناه .

(١) [٩ / التوبة / ١١٢] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٣) [٦٦ / التحريم / ٥] .

قال القمّال: وهذا ليس بشيء والدليل عليه قوله تعالى^(١): (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) ولم يذكر الواو في النعت الثامن . انتهى .

وقال في (الانتصاف): الصواب في الواو ما تقدم من كونها لتأكيد اللصوق . لا كمن يقول إنها واو ثمانية . فإن ذلك أمر لا يستقر لثبته قدم . ويعدون مع هذه الواو في قوله في الجنة (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) قالوا لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وهب أن في اللغة واو تصحب الثمانية فتخصص بها ، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو؟ وربما عدوا من ذلك (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وهو الثامن من قوله (التَّائِبُونَ) وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لتربط بينها وبين الأولى التي هي (الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) لما بينهما من التناسب والربط . ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرها ومواردها؟ كقوله^(٢) (يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وكقوله^(٣) (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وربما عدّ بعضهم من ذلك ، الواو في قوله: (تَيَبَّتْ وَأَبْكَارًا) لأنه وجدها مع الثامن . وهذا غلط فحش . فإن هذه واو التقسيم . ولو ذهبت تحذفها فتقول (تَيَبَّتْ أَبْكَارًا) لم يستدّ الكلام . فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المدودة ، واردة لغير ما زعمه هؤلاء . والله الموفق . . انتهى .

الثالث : حكى في (الإكمال عن مجاهد في قوله تعالى : (فَلَا تَمَارٍ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا) إلا بما أظهرنا لك . ومثله قول السديّ : إلا بما أوحى إليك . وإن فيه تحريم الجدل بغير علم وبلا حجة ظاهرة . وقوله تعالى :

(١) [٥٩ / الحشر / ٢٣] .

(٢) [٩ / التوبة / ٧١] .

(٣) [٣١ / لقمان / ١٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا)

[٢٤] (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَأُذْكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا)

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأُذْكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ » في هذه الآية وجوه من المعاني . منها أن المعنى لا تقولن إلا وقت أن يشاء الله بأن يأذن لك في القول ، فتكون قائلاً بمشيئته ، فالمشيئة على هذا بمعنى الإذن . لأن وقت مشيئة الله لشيء لا تعلم إلا بإذنه فيه أي إعلامه به . ومنها لا تقولن لما عزمت عليه من فعل ، إني فاعل ذلك غداً إلا قائلاً معه إن شاء الله تبرؤاً من لزوم التحكم على الله ، ومن الفعل بإرادتك بل بإرادة الله ، فتكون فاعلاً بمشيئته . ولثلا يلزم الكذب لو لم يشأه الله تعالى . ومنها أن المعنى لا تقولن ذلك قاطعاً بفعله وباتأله . لأنه ^(١) (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا) فلا ينبغي الجزم والبت على فعل أمر مستقبل مجهول كونه . وقوله تعالى (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) أي أن تقول ذلك القول البات نسياناً فحينئذ ارجع إلى ربك بذكره . ولذا قال : (وَأُذْكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ) وعلى هذه الوجوه كلها فد (لَا تَقُولَنَّ) نهى معطوف على النهيين قبله . قال الجاحظ في كتاب (الحيوان) : إنما أئزم جل وعلا عبده أن يقول : إن شاء الله ، ليمبق عادة للمتألى ، ولثلا يكون كلامه ولفظه يشبه لفظ المستبد والمستغنى ، وعلى أن يكون عبده ذا كراً لله . لأنه عبد مدبر ، ومقلب ميسر ، ومصرف مسخر . وبق وجه آخر . وهو أن المعنى لا تقولن ذلك إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول . والجملة خبرية قصد بها الإخبار عن سبق مشيئته تعالى لسكل ما يعزم عليه ويقوله . كقوله تعالى ^(٢)

(١) [٣١ / لقمان / ٣٤] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣٠] .

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) وهذا المعنى هو الظاهر ببيادى الراى كقوله في (الاتصاف) وفي هذا المعنى تلويح بأنه صلوات الله عليه كان هم بأمرٍ ما في نبأ هؤلاء الفتية، وعزم على أمر في غد المحاورة به. ولعله الاستفتاء عنهم. فلما نهى عنه أخبر بأن كل شيء كائن بمشيئته تعالى، ليدخل فيه ما كان قاله دخولاً أولياً. أى ما قلته وعزمت على فعله كان بمشيئة الله، إذ شاء الله أن تقوله. فالآية بمثابة العناية به والتلطيف بالخطاب، إثر ما يوصى إليه النهى إليها من رقيق العتاب ولذلك اعترضت بين سابق النهى عن استفتاءهم، ولا حق الأمر بذكره تعالى إذا نسي، أى نسى ما وصى به. وبما ذكرنا يعلم أن هذا المعنى له وجه وجيه.

فدعوى الناصر في (الاتصاف) أنه ليس هو الغرض، وأن الغرض النهى عن هذا القول إلا مقروناً بمشيئته تعالى. قصرٌ للآية على أحد معانيها، وذهاب إلى ما هو المشهور في تأويلها، وعدم تعمن في مثل هذا المعنى الدقيق، بل وفي بقية المعانى الأخر التى اللفظ الكريم يحتملها. وقد ظهر قوة المعنى الأخير لموافقته لآية (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى « وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » أى خيراً ومنفعة. والإشارة، للنبا المتحاور فيه.

تنبيهات :

الأول - روى أنه صلوات الله عليه سُئل عن أصحاب الكهف والروح وذى القرنين، فقال : أجيكم عنها غداً ولم يستثن. فاحتبس الوحي خمسة عشر يوماً، ثم نزلت (وَلَا تَقُولَنَّ) الآية. وقد زيف هذه الرواية القاضى - كما حكاه الرازى - من أوجه. والحق له. لأنها من مرويات ابن إسحاق عن شيخ مجهول. كما ساقه عنه ابن كثير وغيره، والله أعلم.

الثانى - يشير قوله تعالى « وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي » الآية، إلى أن هذا النبا ليس مما تنبى العناية بتحقيقه وتدقيق أطرافه، وابتغاء الرشد فيه، حتى يتكاف لفتوى أهل

الكتاب فيه . والعزم على فعل شيء مما يلابسه في المستقبل ، لأنه من الأمور الغابرة التي حق الخائض فيها أن ينظر منها إلى وجه العبرة والفوائد التي حوتها، كما أحكمت آيات التنزيل في شأنها .

الثالث - اعترضت هذه الآداب أعنى من قوله تعالى (فَلَا تُمَارِ) إلى هنا قبل تتميم نبئهم ، مبادرة إلى الاهتمام بهذه الآداب والاحتفاظ بها ، لتمتكن فضل تمسكن ، وترسخ في النفس أشد رسوخ . والله أعلم .

الرابع - روى عن ابن عباس في قوله تعالى : (وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) : إذا نسيت الاستثناء بالمشيئة ثم ذكرت فاستثنى ، وذلك (كما قال القرطبي) لتدارك التبرك والتخلص عن الإثم .

وقال في (الانتصاف) : أما ظاهر الآية فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة ، متى ذكرت ولو بعد الطول . وأما حليها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها . انتهى .

ودعوى أنه الظاهر هو على أحد الوجوه فيها ، مفرعاً على أن المشيئة في الآية قبلها ، مشيئة القول ، وهو أحد معاني الآية . وقد حكى عن ابن عباس جواز الاستثناء وإن طال الزمان . ثم اختلف عنه . فقيل إلى شهر وقيل إلى سنة وقيل أبداً . وفي (حصول المأمول) : ومن قال بأن هذه المقالة لم تصح عن ابن عباس ، لعلمه لم يعلم بأنها ثابتة في (مستدرک الحاكم) وقال : صحيح على شرط الشيخين بلفظ : (إذا حلف الرجل على يمين فله أن يستثنى إلى سنة) ومثله عند أبي موسى المدينيّ وسعيد بن منصور وغيرها من طرق . وبالجملة فالرواية عنه رضى الله عنه قد صححت ، لكن الصواب خلاف ما قاله .

قال ابن القسيم في (مدارج السالكين) إن مراده أنه إذا قال شيئاً ولم يستثن ، فله أن يستثنى عند الذكر . وقد غلط عليه من لم يفهم كلامه . انتهى .

وهذا التأويل يدفعه ما تقدم عنه . والاستثناء بعد الفصل اليسير وعند التذكير ، قد دلت

عليه الأدلة الصحيحة . منها حديث أبي داود^(١) وغيره (والله ! لأغزون قريشاً) ثم سكت ثم قال (إن شاء الله) . ومنها حديث^(٢) (ولا يعصد شجرها ولا يختل خلاها) فقال العباس (إلا الإذخر) . وهو في الصحيح . ومنها قوله^(٣) ﷺ في صلح الحديبية (إلا سهل ابن بيضاء) انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)

[٢٦] (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ ، وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

« وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا »
حكاية لقول أهل الكتاب في عهده ﷺ ، في مدة لبثهم نائمين في كهفهم الذي التجأوا إليه ، ليتفرغوا لذكر الله وعبادته . وقد رد عليهم بقوله سبحانه (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا) وإليه ذهب قتادة ومطرف بن عبد الله . وأيده قتادة بقراءة ابن مسعود رضى الله عنه (وَقَالُوا وَلَبِثُوا) قيل : وعليه فيكون ضمير (وَازْدَادُوا) لأهل الكتاب . وإنه يظهر فيه وجه المدول عن المتبادر وهو ثلثمائة وتسع سنين . مع أنه أخصر وأظهر . وذلك لأن بعضهم

- (١) أخرجه أبو داود في : ٢١ - كتاب الأيمان والندور ، ١٧ - باب الاستثناء في اليمين بعد السكوت ، حديث رقم ٣٢٨٥ . (٢) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٧٧ - باب الإذخر والحشيش في القبر ، حديث رقم ٧١٠ ، عن ابن عباس . وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤٤٥ (طبعتنا) . (٣) لم أقف على هذا الحديث .

قال : ثلاثمائة . وبعضهم قال أزيد بتسعة . ولا يخفى ركاكة ما ذكر ، فإن الضمير للفتية . ووجه العدول موافقة رؤوس الآي المقطوعة بالحرف المنصوب . ودعوى الأخرى تدقيق نحوي لا تنهض بمثله البلاغة . وأما الأظهرية فيأبأها ذوق المجتئين ذوقاً سليماً . فإن الوجدان العربي يجد بينهما في الطلاوة بعد المشرقين . ودعوى أن فيها إشارة إلى أنها ثلاثمائة بحساب أهل الكتاب بالأيام ، واعتبار السنة الشمسية ، وثلاثمائة وتسع بحساب العرب ، واعتبار القمرية ، بياناً للتفاوت بينهما ، إذ التفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين - دعوى يتوقف تصحيحها على ثبوت أن أهل الكتاب ازدادوا بالسنة الشمسية وأنه قص علينا ما أرادوه بالسنة الهلالية ، فلذلك قال : (وَأَزْدَادُوا تَسْعًا) لتقف على تحديد ماعنوه ، ومن أين يثبت ذلك؟ وما الداعي لهذا التعمق المشوش؟ والآية جلية بنفسها في دعواهم مدة لبثهم . وقد يريدون السنة الشمسية أو الهلالية ، وبأى منها قالوا: فقد رد عليهم بقوله : (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا) أى بمقدار لبثهم . فلا تَقْفُوا ما ليس لكم به علم ، وما هو غيب يرد إليه سبحانه ، كما قال « لَهُ وَغَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى ما غاب فيهما وخفى من أحوال أهلها ، أى أنه هو وحده العالم به « أُبْصِرْ بِهِ وَوَسْمِعْ » أى ما أبصره لسكل موجود ! وأسمعه لسكل مسموع لا يخفى عليه شيء ولا يحجب بصره وسمعه شيء .

قال الزمخشري : جاء بمبادل على التعجب من إدراكه المسموعات والبصرات ، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين ، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصفرها ، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرماً ، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر .

لطيفة

قال في (الإكليل) : استدلل بقوله تعالى (أُبْصِرْ بِهِ وَوَسْمِعْ) المنتخب على جواز إطلاق صيغة التعجب في صفات الله تعالى ، كقولك : ما أعظم الله وما أجله . انتهى .

أن يشتق من الصفات السمعية صيغة التعجب قياساً على ما في الآية . وقد يقال بالوقف .
ينبغي التأمل .

وقوله تعالى « مَا لَهُمْ » أي أهل السموات والأرض في خلقه « مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ »
أي يتولى أمورهم « وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ » أي قضائه « أَحَدًا » أي من مكوناته العلوية
والسفلية . بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم ، وتديبرهم وتصريفهم ، فيما شاء وأحب .
قال المهايى : فيه إشارة إلى أن علمهم بهم إما من قبيل الغيب ، فهو مختص بالله . أو من
قبيل المسبوع ، فهو أسمع . أو من قبيل البصر ، فهو أبصر . انتهى . وهو لطيف جداً . وقوله تعالى :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَنْزَلْنَا مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ
وَلَنْ نَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

« وَأَنْزَلْنَا مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ » أي بتبليغ ما فيه . ومنه ما أوحى إليك
من نبا الفتية ، فإنه الحق الذي لا يحتاج معه إلى استفتاء فيه .

قال القاشاني : يجوز أن تكون (من) لا ابتداءً الغاية . و (الكتاب) هو اللوح الأول
المشتمل على كل العلوم الذي منه أوحى إلى من أوحى إليه ، وأن تكون بياناً لما أوحى
« لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ » أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل .

قال القاشاني : (كلماته) التي هي أصول التوحيد والعدل وأنواعهما .
وقصده دفع ما يرد من وقوع نسخ بعض الشرائع السابقة باللاحقة وتبديلها بها .
فأشار إلى أن النسخ إنما هو في الفروع لا الأصول .

والأظهر في معنى الآية ؛ أنه لا أحد سواه يبدل حكمه كقوله^(١) (لَا مُقَبِّلَ لِحُكْمِهِ)
وأما هو سبحانه فهو فعال لما يريد « وَلَنْ نَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » أي ملجأً .

(١) [١٣ / الرعد / ٤١] .

وذهب ابن جرير^(١) في تفسير هذه الآية مذهباً دقيقاً قال : يقول تعالى لنبيه واتبع ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركن تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه والعمل بحلاله وحرامه ، فتكون من المهالكين . وذلك أن مصير من خالفه وترك اتباعه يوم القيامة ، إلى جهنم (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) يقول لامغير لما أوعد بكلماته التي أنزلها عليك ، أهل معاصيه والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحينا إليك . وقوله (وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) يقول وإن أنت لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك فتتبعه وتأتّم به ، ففناك وعيد الله الذي أوعد فيه المخالفين حدوده ، لن تجد من دون الله مؤثلاً تتل إليه ، ومعدلاً تعدل عنه إليه . لأن قدرة الله محيطه بك وبجميع خلقه ، لا يقدر أحد منهم على الهرب من أمرٍ أراد به . انتهى .

تنبية :

لهؤلاء الفتية أصحاب الكهف ذكر في تواريخ المسيحيين ، وعيد سنويّ يقام تذكراً لهم ، في اليوم السابع والعشرين من شهر تموز . لكنهم اضطهدوا من قبل الأمراء اليونانيين ، لإيمانهم بالله تعالى وحده ودخولهم في الملة المسيحية ورفضهم الوثنية التي كانت عليها اليونان . وقد رأيت في كتاب (الكنز الثمين في أخبار القديسين) ترجمة عن أحوالهم واسعة تحت عنوان (فيما يخص السبعة القديسين الشهداء الذين من أفسس) تقتطف منها ما يأتي ، دحضاً لدعوى من يفترى أن نبأهم لا يعرف أصلاً ، كما قرأته في بعض كتب الملحدين .

قال صاحب الترجمة : هؤلاء الشهداء السبعة كانوا إخوة بالجد . وأسماؤهم : مكسيميانوس ومالخوس . ومرتينيانوس . وديونيسيوس . ويوحنا . وسارابيون . ثم قسطنطين . هؤلاء الشبان قربوا حياتهم ضحية من أجل الإيمان بالمسيح ، بالقرب من مدينة أفسس ، نحو سنة (٢٥٢) مسيحية . في زمن الاضطهاد القاسي الذي صنعه ضد المسيحيين ، الملك داكيوس .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد أجلّهم المسيحيون كشهداء حقيقيين . فيقام لهم في الكنائس مدائح تنشر فيها صفاتهم الفاضلة يوم استشهدوا ثمّة ، في اليوم الرابع من شهر آب ، المختص بتذكار الأعجوبة التي بواسطتها قد ظهرت أجسادهم المقدسة في المغارة القريبة من مدينة أفسس .

ثم قال : وأما نوع استشهادهم فليس بمعروف . لأن أعمالهم الجهادية في سبيل الإيمان لم توجد مدوّنة في التواريخ الكنائسية المدققة . بل إن المؤكّد عنهم أن استشهادهم كان في زمن الملك داكيوس ، حذاء مدينة أفسس . حيث وجدت فيما بعد أجسادهم في مغارة ليست بعيدة من أهل هذه المدينة .

ثم قال : فلبعض من الكتبة الكنائسيين يرتوون بأنه لما اختفى هؤلاء الفتية في تلك المغارة هرباً من الاضطهاد ، عرف أمرهم فأغلق عليهم باب المغارة بصخور عظيمة . وهكذا ماتوا فيها . وغيرهم يروون أنهم قتلوا من أجل الإيمان في مدينة أفسس . وبعد موتهم نقلت أجسادهم ودفنت في المغارة المذكورة . وآخرون يظنون أنهم حبسوا أنفسهم أحياء باختبائهم في المغارة المذكورة ، ليموتوا برضاهم ، هرباً من خطر أنواع العذاب القاسية التي كان يتكبدها المسيحيون في ذلك الاضطهاد الوحشيّ .

ثم قال : فكيفما كان نوع استشهادهم هؤلاء السبعة ، فقد تحقق أن الله أراد أن يكرمهم بإظهار أجسادهم بواسطة رؤيا سماوية . وذلك في ٤ آب سنة ٤٤٧ في زمن ولاية الملك (ناوضوسيوش الصغير) .

ثم قال : ودرج على أفواه الشعوب ؛ أن هؤلاء الفتية ، بعد أن أغلق عليهم باب المغارة بأمر داكيوس الملك ، لم يموتوا ضمنها ، لاموتاً طبيعياً ولا قسرياً . بل رقدوا رقاد النوم مدة ، نحو مائتي سنة . ثم نهضوا من نومهم الطبيعيّ سنة (٤٤٧) .

ثم قال : وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تأويل ما روى من رقادهم الطويل ، بأنه لما ظهرت أجسادهم سالمة من البلى ، بعد أن دفنوا في ذلك الغار أحياء أو أمواتاً ، بواسطة خارقة ما ،

ونقلت من مدفنهم الذى كانوا فيه ، اعتبرت تلك الأجساد كأنها صودفت مستيقظة من نوم لذيذ كانت راقدة فيه . إلا أن الذى يبطل هذا التأويل ما نقله بعدُ عن القنذاق ، من أنهم نهضوا بعد أن رقدوا عدة من السنين وانتصروا على ضلال أولئك الوثنيين . وبظهورهم كذلك أيدوا حقيقة إيمانهم ووطدوا المؤمنين فى رجاء القيامة فى الحياة الأبدية .

هذا ما اقتطفناه من كتاب (الكنز الثمين) وبه تعلم ما لدى أهل الكتاب المسيحيين من الاختلاف فيهم ، الذى أشار له القرآن الكريم . وقد جاء فى (تاريخ الكنيسة) : إن أقوال وأعمال الشهداء فى المسيحية لم ينقل منها إلا القليل . لأن أكثرها أحرق بالنار مدة مدة العشر سنوات . من سنة (٢٩٣ إلى ٣٠٣) وإن من القرن الثامن فصاعداً ، اعتنى الروم واللاتيون بجمع حياة الشهداء الأولين . غير أن الأكثر حذاقة ، حتى الذين فى حضن الكنيسة الرومانية ، يستلمون الآن بأن أكثر الأخبار أحاديث ملفقة ، غراماً بالبلاغة . وجداول القديسين المسماة (أقوال الشهداء) ليست بأكثر ثقة . التى ألفها أناس جهلاء غير قادرين ، أو دخلها منذئذ كاذب . فهذا القسم من تاريخ الكنيسة إذ ذاك مظلم خال من النور . انتهى كلامه بالحرف .

وفيه ميل إلى النصفة من عدم الثقة بما لديهم من هذا الخلاف الذى حسم مادته ، واقتلعه من جذوره ، القرآن الكريم .

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى^(١) (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ) الآية الآتية ، معتذراً عما نقله ، ما مثاله : روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف . وغالبا من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها . والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد يقطع بكذبه ، لمخالفته للحق الذى بأيدينا . وفى القرآن غنية عن كل ما عدها من الأخبار المتقدمة . لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة وتقصان . وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين ينفون عنها

(١) [١٨ / الكهف / ٥٠] .

تحريف الغالين وانتحال المبطلين . كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ،
والجهاذة النقاد ، والحفاظ الذى دونوا الحديث وحرروه، وبيّنوا صحيحه من حسنه ومنكره
وموضوعه ومتروكه . وعرفوا الوضّاعين والكذابين والمجهولين من أصناف الرجال . كل ذلك
صيانة للجناب النبوىّ والمقام المحمديّ خاتم الرسل وسيد البشر ، أن ينسب إليه كذب
أو يحدث عنه بما ليس منه . فرضى الله عنهم وأرضاهم . وجعل جنات الفردوس مأواهم .
وقد فعل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُمْ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ
مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

« وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ » أى احبسها واتبها « مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ »

أى مع أصحابك الذين يذكرونه سبحانه طرفى النهار ، بملازمة الصلاة فيهما « يُرِيدُونَ
وَجْهَهُمْ » أى ذاته طلباً لمرضاته وطاعته ، لا عرضاً من أعراض الدنيا « وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ
عَنْهُمْ » أى لا تجاوز نظرك إلى غيرهم بالإعراض عنهم « تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »
أى تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء تألفاً لقلوبهم « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن
ذِكْرِنَا » أى جعلناه غافلاً لبطلان استعداده للذكر بالمرّة . أو وجدناه غافلاً عنه . وذلك
لثلاثا يؤدبك إلى الغفلة عنه « وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » أى متروكا متهاونا به
مضيئاً . أو ندماً أو سرفاً . وفى التعبير عن المأمور بالصبر معهم والمنهى عن إطاعتهم ،
بالموصول ، للإيدان بعملية ما فى حيز الصلة .

قال ابن جرير^(١) : إن قوماً من أشراف المشركين رأوا النبي ﷺ جالساً مع خباب

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وصهيب وبلال . فسألوه أن يُقيمهم عنه إذا حضروا . وفي رواية ابن زيد^(١) : أنهم قالوا له صلوات الله عليه : إنا نستحي أن نجالس فلاناً وفلاناً وفلاناً ، فجانبتهم وجالس أشرف العرب ، فنزلت الآية (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ) . وروى مسلم^(٢) عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرده هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان (نسيت اسميهما) فوقع في نفس رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقع . فحدث نفسه . فأُنزل الله عز وجل (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) الآية .

قال ابن كثير : انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاوُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)

« وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ » أى جاء الحق وهو ما أوحى إلى منه تعالى « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » إما من تمام القول المأمور به ، والفاء لترتب ما بعدها على ما قبلها ، بطريق التهديد . أى عقيب تحقق أن ما أوحى إلى حق لا ريب فيه ، وأن ذلك الحق من جهة ربكم . فمن شاء أن يؤمن به ، فليؤمن كسائر المؤمنين . ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل . ومن شاء أن يكفر به فليفعل . وفيه من التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم ، وعدم المبالاة بهم وبيابانهم ، وجوداً وعدماً - ما لا يخفى . وإما تهديد من جهة الله تعالى ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٤ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٦ و ٤٥ (طبعتنا) .

والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الأمر . والمعنى : قل لهم ذلك . وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن . ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل . أفاده أبو السعود . وفي (المعنایة) : الأمر والتخيير ليس على حقيقته . فهو مجاز عن عدم المبالاة والاعتناء به . والأمر بالكفر غير مراد . فهو استعارة للخذلان والتخلية ، بتشبيهه حال من هو كذلك بحال المأمور بالمخالفة . ووجه الشبه عدم المبالاة والاعتناء به فيهما . وهذا كقوله ^(١) (أَسِيبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةً) وهذا رد عليهم في دعائهم إلى طرد الفقراء المؤمنين ليجالسوه ويتبعوه . فقيل لهم : إيمانكم إنما يعود نفعه عليكم ، فلا نبالي به حتى نطردهم لذلك ، بعد ما تبين الحق وظهر . وقوله تعالى : « إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا » وعيد شديد ، وتأكيدهم للتهديد وتعليل لما يفيد من الزجر عن الكفر . أو لما يفهم من ظاهر التخيير ، من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه . فإن إعداد جزائه من دواعي الإيلاء والإمهال . وعلى الوجه الأول ، هو تعليل للأمر بما ذكر من التخيير التهديدي . أي قل لهم ذلك (إنا أعتدنا للظالمين) أي هيأنا للكافرين بالحق ، بعد ما جاء من الله سبحانه . والتعبير عنهم بـ (الظالمين) للتنبية على أن مشيئة الكفر واختياره ، تجاوز عن الحد ووضع للشئ في غير موضعه . أفاده أبو السعود . وقوله تعالى « أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » أي فسطاطها . وهي الخيمة . شبه به ما يحيط بهم من النار . فإن انتشار لهب النار في الجهات شبيه بالسرادق . ويطلق السرادق على الحظيرة حول الفسطاط لمنع من الوصول إليه . شبه ما يحيط بهم من جهنم ، بها . يقال بيت مسردق ، ذو سرادق « وَإِنْ يَسْتَفِئُوا » أي من الظما لاحتراق أفئدتهم « يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلِ » أي كالحديد المذاب وكسكر الزيت ، وقال القاشاني : من جنس الفساق والفسلين ، أي المياه المتعفنة التي تسيل من أبدان أهل النار ، مسودة يعاثن بها . أو غسالاتهم القذرة . ويؤيده قوله تعالى ^(٢) (وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَ) « يَشْوَى الْجُوهَ » أي إذا قدم إليه ليشرب ، من فرط حرارته .

(١) البيت لكثير عزة . وعجزه : لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنَّ تَقَلَّتْ . (٢) [١٤/ إبراهيم/ ١٧]

« وَسَاءَتْ » أي النار « مُرْتَفَقًا » أي متكأً . وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد .
 وذكره لمشاكله قوله (وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا انكاء . وقد
 يكون تهكمًا ، كقوله (١) .

إِنِّي أَرِقْتُ فَبْتُ اللَّيْلَ مُرْتَفَقًا كَانَ عَيْنِي فِيهَا الصَّابُ مُذْبُوحُ
 والصاب: شجر مرمّ يحرق ماؤه العين . ومذبوح: مشقوق . وفي كتاب (تنزيل الآيات)
 في الصحاح : بات فلان مرتفقًا ، أي متكأً على مرفق يده . وهو هيئة المتحزن المتحسرين .
 فعلى هذا لا يكون من المشاكله ولالتهم ، بل هو على حقيقته . كما يكون للتنعم يكون للتحزن .
 وتمعيبه في (العناية) فقال : وأما وضع اليد تحت الخد للتحزن والتحسر ، فالظاهر أن العذاب
 يشغلهم عنه . فلا يتأتى منهم حتى يكون هذا حقيقة لا مشاكلة ، فلذا لم يمرجوا عليه . ثم
 علل الحث على الإيمان المفهوم من التخيير المتقدم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا)

[٣١] (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا

مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ

مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ، نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا* أُولَئِكَ

لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ

(١) البيت لأبي هذيل الهذلي . وهو في اللسان في مادة (ص و ب) .

وروايته هناك (مشتجرًا) بدل (مرتفقًا) .

وفي الديوان ١٠٤/١ (نام الخلي) عوضاً عن (إِنِّي أَرِقْتُ) .

ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُنْدُسٍ « وهو ما رُق من الديداج « وَإِسْتَبْرَقٍ » وهو ما كُف منهُ
 « مُتَّكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ » أى السرر على هيئة المتنعمين « نِعْمَ الثَّوَابُ » أى
 الجنات المذكورة « وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا » أى متسكاً . وقيل المرتفق المنزل والمستقر ، آية (١)
 (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) وآية (٢) (حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مِّثْلًا مِّثْلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا
 بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)

« وَأَضْرِبْ لَهُمْ مِّثْلًا » أى للمؤمن والكافر « رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ
 مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ » وهى أعز ما يؤثره أولئك فى تأزير كرومهم بالأشجار
 « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا » أى بين الجنتين ، أو بين النخيل والأعناب « زَرْعًا » أى فحصل منهما
 الفواكه والأقوات ، فكانتا منشأ الثروة والجاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْهُمَا أُكُلُهُمَا وَتَمَنَّيَا أَنْ يَبْعَثَنَّ بَيْنَهُمَا نَهْرًا)
 « كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْهُمَا أُكُلُهُمَا » أى ثمرها كاملة « وَتَمَنَّيَا أَنْ يَبْعَثَنَّ
 بَيْنَهُمَا نَهْرًا » أى فى يسقى الأشجار والزرع ،
 ويزيد فى بهجة مراحها ، تكميما لحسنهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا
 وَأَعَزُّ نَفْرًا)

« وَكَانَ لَهُ » أى لصاحب الجنتين « ثَمْرٌ » أى أنواع من المال غير الجنتين . من

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٦] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٦] .

(ثَمَرَ مَالِهِ) إِذَا كَثُرَ « فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ » أَي يَرَاغِمُهُ الْكَلَامَ، تَعْيِيرًا لَهُ بِالْفَقْرِ، وَنَحْرًا عَلَيْهِ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ « أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » أَي أَنْصَارًا وَحِشْمًا.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا)

« وَدَخَلَ جَنَّتَهُ » أَي بِصَاحِبِهِ يَطُوفُ بِهِ فِيهَا وَيَفَاخِرُ بِهِ . كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ وَمَحَاوِرَتُهُ لَهُ . وَإِفْرَادُ الْجَنَّةِ هُنَا مَعَ أَنْ لَهُ جَنَّتَيْنِ كَمَا مَرَّ ، إِمَّا لِعَدَمِ تَعْلُقِ الْغَرَضِ بِتَعَدُّدِهَا ، وَإِمَّا لِاتِّصَالِ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى ، وَإِمَّا لِأَنَّ الدَّخُولَ يَكُونُ فِي وَاحِدَةٍ فَوَاحِدَةٍ . وَقِيلَ : الْإِضَافَةُ تَأْتِي لِمَعْنَى اللَّامِ . فَالمرادُ بِهَا الْعُمُومُ وَالِاسْتِغْرَاقُ . أَي كُلُّ مَا هُوَ جَنَّةٌ لَهُ يَتَمَتَّعُ بِهَا . فَيَفِيدُ مَا أَفَادَتِهِ التَّثْنِيَةُ مَعَ زِيَادَةِ . وَهِيَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ لَا جَنَّةَ لَهُ غَيْرَ هَذِهِ « وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ » أَي بِمَا يُوْجِبُ سَلْبَ النِّعْمَةِ ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالْعِجْبُ . وَفِي (الْعِنَايَةِ) ظُلْمُهُ لَهَا إِمَّا بِمَعْنَى تَنْقِيسِهَا وَضُرُّهَا، لِتَعْرِيزِ نِعْمَتِهِ لِلزَّوَالِ وَنَفْسِهِ لِلْهَلَاكِ، أَوْ بِمَعْنَى وَضْعِ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ . لِأَنَّ مَقْتَضَى مَا شَاهَدَهُ التَّوَاضُعُ الْمُبْكِي ، لَا الْعِجْبُ بِهَا وَظَنُّهَا أَنَّهَا لَا تَبِيدُ أَبَدًا . وَالْكَفْرُ بِإِنْكَارِ الْبَعْثِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ « قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ » أَي تَهْلِكَ وَتَفْنَى « هَذِهِ » أَي الْجَنَّةُ « أَبَدًا » لِإِعْتِقَادِهِ أَبَدِيَّةِ الدَّهْرِ ، وَأَنْ لَا كُونَ سِوَى مَا تَقَعُ عَلَيْهِ مَشَاعِرُهُ . وَلِذَا قَالَ :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا)

« وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً » أَي كَائِنَةً آتِيَةً ، وَقَوْلُهُ « وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا » إِقْسَامٌ مِنْهُ عَلَى أَنَّهُ ، إِنْ رَدَّ إِلَى رَبِّهِ ، عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ وَالتَّقْدِيرِ ، كَمَا يَزْعُمُ صَاحِبُهُ ، لِيَجِدَنَّ فِي الْآخِرَةِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِهِ فِي الدُّنْيَا ، تَطْمَعًا وَتَمَنِّيًّا عَلَى اللَّهِ ، وَإِدْعَاءَ لِكِرَامَتِهِ عَلَيْهِ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَهُ . وَإِنَّهُ مَا أَوْلَاهُ الْجَنَّتَيْنِ إِلَّا لِاسْتِحْقَاقِهِ وَاسْتِثْنَائِهِ .

وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه . كقوله^(١) : (إِنَّ لِي عِنْدَهُ وَ لَلْحُسْنَىٰ) ^(٢) (لَا وَتَيْنَ مَا لًا وَوَلَدًا) و (مُنْقَلَبًا) أى مرجعاً وعاقبة . أفاده الزمخشري .

قال المهايى : فكفر بالقول بقدم العالم ونفى حشر الأجساد واعتقد عكس الجزاء إذ قال (لَا جِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا) والقول بقدم العالم ينفي اختيار الصانع وإرادته . ويإنكار حشر الأجساد ينفي قدرته على الإعادة . وبعكس الجزاء ينفي الحكمة الإلهية . ثم بين تعالى ما أجابه به صاحبه المؤمن ، واعظاً له ، وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعتزاز ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (قَالَ لَهُ وَصَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ - أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ مِّنْ نُّطْفَةٍ مِّنْ سَوَّاتِكَ رَجُلًا)

« قَالَ لَهُ وَصَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ » أى الذى عيرهُ بالفقر، تمييزاً له على كفره « وَهُوَ يُحَاوِرُهُ » أى راجعه كلام التعمير على الكفر ، محاورته كلام التعمير على الفقر ، فى ضمن النكر عليه « أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ مِّنْ نُّطْفَةٍ » أى يجعل التراب نباتاً ثم جعله غذاء يتولد منه النطفة « ثُمَّ سَوَّاتِكَ رَجُلًا » أى عدلك وملك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال . قال أبو السعود : والتعبير عنه تعالى بالموصول ، للإشعار بعلمية ما فى حيز الصلة ، لإنكار الكفر . والتلويح بدليل البعث الذى نطق به قوله تعالى عز من قائل ^(٣) : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) الآية ، وكما قال تعالى ^(٤) (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ) الآية . قال ابن كثير : أى كيف تمجدون ربكم ، ودلالته عليكم ظاهرة جلية ، كل أحد يعلمها من نفسه . فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد . وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء

(١) [٥١ / فصلت / ٥٠] . (٢) [١٩ / مريم / ٧٧] .

(٣) [٢٢ / الحج / ٥] . (٤) [٢ / البقرة / ٢٨] .

من المخلوقات ، لأنه بمثابة . فعمل إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء .
ولهذا قال صاحبه المؤمن :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا)

« لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا » أى لكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أترف لله بالوحدانية والربوبية . ولا أشرك به أحداً معه من العلويات والسفليات . وقد قرأ ابن عامر (لَكِنَّا) بإثبات الألف وصلًا ووقفًا . والباقون بحذفها وصلًا ، وإثباتها وقفًا . فالوقف وفاق . وأصله لكن أنا . وقرئ كذلك فحذفت الهمزة ثم أدغمت النون في مثلها فصار (لكن) ثم ألحق الألف إجراءً للوصول مجرى الوقف . لأن الوقف على (أنا) بالألف ، ولأن الألف تدل على أن الأصل (لكن أنا) وبغيرها يلزم الإلباس بينه وبين (لكن) المشددة . قال الزخشرى : ونحوه قول القائل (١) :

وَتَرْمِينِي بِالطَّرْفِ أَيْ أَنْتَ مُذْنِبٌ وَتَقْلِينِي لَكِنَّ إِيَّاكَ لَا أَقْلِي

أى لكن أنا لا أقليك . ويقرب منه قول الآخر (٢) :

وَلَوْ كُنْتَ ضَبِيًّا عَرَفْتَ قَرَابَتِي وَلَكِن زَنْجِيًّا عَظِيمُ الْمَشَافِرِ

أى ولـكنك . وقوله تعالى :

(١) الأضداد لابن الأنبارى ص ١٦٣ والخزانة ٤/٤٩٠ وقال « لم أف على تتمته

وقائله ، مع أنه مشهور ، قلما خلا منه كتاب نحوى . والله أعلم » .

الحاشية رقم ٣ بالصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الأول من تفسير الطبرى (طبعة المعارف) .

(٢) أنشده سيويوه في كتابه ١/٢٨٢ .

وقائله الفرزدق .

وأنشده في اللسان في مادة (ش ف ر) وهو هناك : ولكن زنجيًّا ، وحينئذ فلا شاهد فيه .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣٩] (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، إِنْ تَرَنِ
أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا)

[٤٠] (فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ
السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا)

[٤١] (أَوْ يُصْبِحَ مَأْثَمًا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ وَ طَلَبًا)

« وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ » أى هلا قلت عند دخولها ذلك . قال
الزمخشري . يجوز أن تكون (ما) موصولة مرفوعة المحل ، على أنها خبر مبتدأ محذوف . تقديره
(الأمر ما شاء الله) أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف بمعنى (أى شىء شاء الله كان)
ونظيرها فى حذف الجواب (لو) فى قوله ^(١) (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) والمعنى :
هلا قلت عند دخولها ، والنظر إلى ما رزقك الله منها ، الأمر ما شاء الله ، اعترافاً بأنها وكل
خير فيها ، إنما حصل بمشيئة الله وفضله . وأن أمرها بيده . إن شاء تركها عامرة ، وإن شاء
خرّبها . وقلت « لَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدير أمرها ، إنما
هو بمعونته وتأيدته . إذ لا يقوى أحد فى بدنه ولا فى ملك يده ، إلا بالله تعالى . والقصد من الجملتين
التبرؤ من الحول والقوة ، وإسناد ما أوتيه إلى مشيئة الله وقوته وحده . ثم أشار له صاحبه
بأن تعبيره إياه بالفقر ، لا يبعد أن ينعكس فيه الأمر ، بقوله « إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا
وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا » أى مقداراً قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتدميرها من صواعق وآفات
علوية « مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا » أى تراباً أملس لا تثبت فيها قدم ، للاستها

(١) [١٣ / الرعد / ٣١] .

« أَوْ » يهلكها بآفة سفلية من جهة الأرض بأن « يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا » أى غائرًا فى الأرض « فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ وَطَلَبًا » أى حيلة تدركه بها ، بالحفر أو بغيره .

تنبيه :

كل من قوله تعالى (إِنْ تَرَنْ) وقوله (أَنْ يُؤْتَيْنِ) رسم بدون ياء . لأنها من ياءات الزوائد . وأما فى النطق ، فبعض السبعة يشتمها وبعضهم يحذفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا)

« وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ » أى ياهلاكه فلم يبق له فيها ثمرة . قال الزمخشري : (أحيط به) عبارة عن إهلاكه . وأصله من (من أحاط به العدو) لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه . ثم استعمل فى كل إهلاك ومنه قوله تعالى (١) (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) .

ومثله قولهم : (أتى عليه) إذا أهلكه . من (أتى عليهم العدو) إذا جاءهم مستعليا عليهم . يعنى إنه استعمارة تمثيلية . شبه إهلاك جنتيه بما فيها ، يهلك قوم بجيش عدو أحاط بهم وأوقع بهم بحيث لم ينج أحد منهم . كما أن (أتى عليهم) بمعنى أهلكهم ، استعمارة أيضا ، من إتيان عدو غالب مستعمل عليهم بالقرهر « فَاصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا » أى فعير نفسه أكثر من تعيره صاحبه وتعمير صاحبه إياه . قال الزمخشري : تقلب الكفين كناية عن الندم والتحسر . لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن . كما كنى عن ذلك بِمَعْصُ الكف ، والسقوط فى اليد . ولأنه فى معنى الندم ، عدى تعديته بـ (على) كأنه قيل فأصبح يندم على ما أنفق فيها ، أى فى عمارتها . فيكون ظرفاً لغواً . ويجوز كونه ظرفاً مستقراً متعلقه خاص ، وهو حال . أى متحسراً . والتحسر الحزن . وهو أخص من الندم . لأنه

(١) [١٢ / يوسف / ٦٦] .

- كما قال الراغب - الغم على ما فات « وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » أى ساقطة عليها .
 و (العروش) جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليه شيء . فإذا سقط سقط ما عليه .
 أن كرومها المعروشة ، سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم ، بحيث قاربت
 أن تصير صعيداً زلقاً « وَيَقُولُ » عطف على (يقاب) « بَلَّيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا »
 أى من الأوثان . وذلك أنه تذكر موعظة أخيه فلم أنه أتى من جهة شركه وطفياهه .
 فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك الله بستانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ وَفِيَّةً يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا)
 « وَلَمْ تَكُنْ لَهُ وَفِيَّةً » أى منعمة وقوم « يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى يقدرون
 على نصرته من دون الله ، كما افتخر بهم واستعز على صاحبه « وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا » أى
 ممتنعاً بنفسه وقوته عن انتقام الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)

« هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ » أى فى ذلك المقام وتلك الحال التى وقع فيها الإهلاك .
 (الولاية) بفتح الواو ، أى النصرة لله وحده ، لا يقدر عليها أحد غيره . فالجملة مقررة
 ومؤكدة لقوله (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ وَفِيَّةً يَنْصُرُونَهُ) لأنها بمعناها . أو ينصر فيها أوليائه
 المؤمنين على المشركين وينتقم لهم ويشقى صدورهم من أعدائهم ، كما نصر على الكافر صاحبه
 المؤمن ، وصدق قوله : (فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا
 مِّنَ السَّمَاءِ) ويعضده قوله تعالى : « هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا » أى لأوليائه .
 فلا ينقص لمؤمن درجة ، لدناءته فى الدنيا ، ولا يترك لكافر عقوبة لشرفه ، بل يعاقبه بذنبه
 ويظهر فضل المؤمن عليه . وقرئ (الولاية) بكسر الواو بمعنى السلطان والملك . أى هنالك

السلطان له والملك . لا يغلب . ولا يمتنع منه . أوفى مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر . يعنى أن^(١) (يَلَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) كلمة أُلجئ إليها فخالها ، جزعا مما دهاه من شؤم كفره . ولولا ذلك لم يقلها . كقوله تعالى^(٢) : (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ) .

وكقوله إخباراً عن فرعون^(٣) « حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ وَ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَأَلْسَنُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (أو (هنالك) إشارة إلى الآخرة . أى فى تلك الدار الولاية لله . كقوله^(٤) : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) ويناسبه قوله^(٥) : (هُوَ خَيْرٌ نَّوَابًا وَخَيْرٌ عَقْبًا) . و (هنالك) على الأوجه المتقدمة ، خبر مقدم و (الولاية) مبتدأ مؤخر . والوقف على (منتصراً) . وجوز بعضهم كون (هنالك) معمولاً لـ (منتصراً) وإن الوقف عليه . أى على (هنالك) وإن (الولاية لله) جملة من مبتدأ وخبر مستأنفة . أى وما كان منتصراً فى ذلك الوطن الذى حل به عذاب الله . فلم يكن منقذله منه .

وأقول : هذا الثانى ركيك جداً ، مفكك لرؤوس الآى فى السورة . فإنها قطعت كلها بالاسم المنصوب . وشبهة قائله جوازه عربية . وما كل جائز عربية رقيق الحواشى بلاغة . ولذلك لم يعول عليه الزمخشري ومن تابعه . و (الحق) قرى بالرفع صفة (للولاية) وبالنصب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة المنصوب بمامل مقدر . وبالجر صفة للفظ الجلالة . (عقبا) قرى بسكون القاف وضمها . وهما العاقبة كالمشر والمشر .

تنبيه :

يذكر كثير من المفسرين هنا وجهها فى هذا المثل . وهو أن الرجلين المذكورين فيه

(١) [١٨ / الكهف / ٤٢] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٤] . (٣) [١٠ / يونس / ٩١ و ٩٠] .

(٤) [٤٠ / غافر / ١٦] . (٥) [١٨ / الكهف / ٤٤] .

كانا موجودين ولها قصة . ولا دليل في ذلك ولا اتجاه . فإن التمثيل بشيء لا يقتضى وجوده . وجوز في هذا المثل أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية والتشبيه . وأن يكون المثل مستعاراً للحال الغريبة ، بتقدير (اضرب) مثلاً ، مثل رجلين ، من غير تشبيه واستعارة . وقد عني بأحد الرجلين في التمثيل ، مشركو مكة ، وما كانوا عليه من الفخر بأموالهم والبذخ بخولهم ، وغمط المستضعفين من المؤمنين . وما آل إليه أمر الفريقين ، مما طابق المثل الممثل ، مطابقة طبقت الآفاق . مصداقاً لوعده تعالى ، سيكون الأمر في الآخرة أعلى^(١) (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) .

ثم أشار تعالى إلى سرعة فناء ما يتمتعون به من الدنيا ، ويختالون به بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا)

« وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى اذكر لهم ما تشبهه في زهرتها وسرعة زوالها « كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى فالتف بسببه وتكاثف ، حتى خالط بعضه بعضاً ، فشب وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة « فَأَصْبَحَ » أى بعد ذلك الزهو « هَشِيمًا » أى جافاً يابساً مكسوراً « تَذْرُوهُ الرِّيحُ » أى تفرقه وتنفسه ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن ، وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها ، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذى حصل للنبات من شرف النمو . ثم يزولون زوال النبات « وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا » أى على كل من الإنشاء والإفناء كامل القدرة . ولما كان هذا المثل للحياة الدنيا من أبهج المثل وأبدعها ، ضرب كثيراً في التزليل ، كقوله تعالى في سورة

(١) [١٧ / الإسراء / ٢١] .

يونس^(١) : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ...) الآية . وفي الزمر^(٢) (أَلَمْ نَرِ أَنْ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ وَ يَنْبَلِغُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ...) الآية . وفي الحديد^(٣) : (أَعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ مُمْ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ غَيْثٌ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ...) الآية .

ثم بين تعالى شأن ما كانوا يفتخرون من محسنات الدنيا ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا)

« الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وذلك لإعانتها فيها ، ووجود الشرف بهما . ثم أشار إلى أنهما ليسا من أسباب الشرف الأخرى ، إذ لا يحتاج فيها إليهما ، بقوله : « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا » أى والأعمال التى تبقى ثمراتها الأخروية ، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات ، خير عند ربك من المال والبنين ، فى الجزاء والفائدة . وخير مما يتعلق بهما من الأمل . فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية ، أمرها إلى الزوال . وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الربانى والنعيم الأبدى ، لا يزول ولا يحول .

لطائف :

(١) تقديم (المال) على (البنين) لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد . ولكون الحاجة إليه أمس . ولأنه زينة بدونهم ، من غير عكس .

(١) [١٠ / يونس / ٢٤] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٢١] . (٣) [٥٧ / الحديد / ٢٠] .

(٢) أفراد (الزينة) مع أنها مسندة إلى الاثنين ، لما أنها مصدر في الأصل . أطلق على المفعول مبالغة . كأنها نفس الزينة . وإضافتها إلى الحياة اختصاصية ، لأن زينتها مخصصة بها .
 (٣) إخراج بقاء الأعمال وصلاحها ، مخرج الصفات المفروغ عنها ، مع أن حقهما أن يكونا مقصودى الإفادة ، لاسيما في مقابلة إثبات الفناء لما يقابلهما من المال والبنين على طريقة^(١) (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) - للإيدان بأن بقاءها أمر محقق لا حاجة إلى بيانه . بل لفظ (الباقيات) اسم لها لا وصف . ولذلك لم يذكر الموصوف . وإنما الذى يحتاج إلى التعرض له خيريتها .

(٤) تكرير (خير) للإشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة . كذا يستفاد من أبى السمود ، مع زيادة .

(٥) وقع فى كلام السلف تفسير (الباقيات الصالحات) بالصلوات وأعمال الحج والصدقات والصوم والجهاد والعتق وقول (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) والكلام الطيب ، وبغيرها ، مما روى مرفوعاً وموقوفاً . والمرفوع من ذلك كله لم يخرج فى الصحيحين . وكله على طريق التمثيل . وإن اللفظ الكريم يتناولها لكونها من أفراده . ثم أشار تعالى إلى تحذير المشركين من أهوال القيامة ، التى هى الوعد الحق والفيصل الصدق ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا لَهُمْ فَلَمَّ نَعَادِرُ مِنْهُمْ
 أَحَادًا)

« وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ » أى اذ كر يوم نقلها من أماكنها ونسبها فى الجو . كما

(١) [١٦ / النحل / ٩٦] .

ينبئ عنه قوله تعالى^(١) : (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَمَدًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) أونسير أجزاءها بعد أن يجعلها هباءً منبثاً « وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » لبروز ماتحت الجبال ، أى ظهوره ، بنسفها وبروز ماعدها بزوال الجبال والكتب . حتى تبدو للعيان سطحاً مستوياً ، لانباء ولا شجر ولا معلم ولا ماسوى ذلك « وَحَشَرَ نَهْمٌ » أى جمعناهم إلى موقف الحساب « فَلَمْ نُغَادِرْ » أى تترك « مِنْهُمْ أَحَدًا » أى لا صغيراً ولا كبيراً . كما قال^(٢) (قُلْ إِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) وقال^(٣) (ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ،

بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّنَا نَجْعَلُ لَكُمْ مَوَاعِدًا)

« وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا » أى مصطفين مترتبين فى المواقف ، لا يحجب بعضهم بعضاً ،

كل فى رتبته ، قاله القاشانى .

وقال أبو السعود : (صَفًّا) أى غير متفرقين ولا مختلطين . فلا تعرض فيه لوحدة

الصف وتعدده .

قال الزمخشري : شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ، مصطفين ظاهرين .

يرى جماعتهم كما يرى كل واحد . لا يجب أحدٌ أحدًا « لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ

مَرَّةٍ » أى بلا مال ولا بنين . أو لقد بعثناكم كما أنشأناكم . والكلام على إضمار القول .

أى وقلنا . تقريباً للمفكرين للمعاد ، وتوبيخاً لهم على رؤوس الأنهاد « بَلْ زَعَمْتُمْ » أى

يانكاركم البعث « أَنَّنَا نَجْعَلُ لَكُمْ مَوَاعِدًا » أى وقتاً لإنجاز ما وعدناكم من البعث

(١) [٢٧ / النمل / ٨٨] . (٢) [٥٦ / الواقعة / ٤٩ و٥٠] . (٣) [١١ / هود / ١٠٣] .

والنشور والحساب والجزاء . فلم يعملوا لذلك أصلاً ، بل عملوا مايزدادون به افتضاحاً . و (بل) للخروج من قصة إلى أخرى . فالإضراب انتقالى ، لا إبطالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيْلِتَنَّا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

« وَوَضِعَ الْكِتَابُ » أى صحائف الأعمال بين يدى الله بحضرة الخلائق « فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ » أى خائفين أن يفتضحوا « مِمَّا فِيهِ » أى من أعمالهم السيئة المسطرة « وَيَقُولُونَ يُوَيْلِتَنَّا » أى هلكتنا وحسرتنا على ما فرطنا فى أعمارنا . قال القاشانى : يدعون الهلكة التى هلكوا بها ، من أثر العقيدة الفاسدة والأعمال السيئة « مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » أى أى شأن حصل له ، فلا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً إلا ضبطه وحفظه . والاستفهام مجاز عن التعجب فى إحصائه كل المعاصى ، وعدة مقاديرها وأوصافها ، وعدم تسامحه فى شىء منها .

قال البقاعى عليه الرحمة : إن لام الجر رسمت مفصولة (يعنى فى الرسم العثمانى) ، إشارة إلى أنهم لشدة الكرب يقفون على بعض الكلمة . وهذا من لطائفه رحمه الله . « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا » أى مكتوباً فى الصحف تفصيلاً ، من خير وشر . كما قال تعالى (١) (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا) الآية . وقال (٢) (يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) .

« وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » أى فىكتب عليه ما لم يعمله ، أو يزيد فى عقابه . ثم أشار

(١) [٣ / آل عمران / ٣٠] . (٢) [٧٥ / القيامة / ١٣] .

تعالى إلى أن الكفر والعصيان مصدره طاعة الشيطان ، وإيثاره على الرحمن . والشيطان أعدى الأعداء وأفسق الفساق . فلا يتولاه إلا من سفه نفسه ، وحاد عن جادة الصواب ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بئسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ »
 أى العتاة المردة الشياطين « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » أى خرج عن طاعته « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ » أى فتستبدلونهم بى فتطعمونهم بدل طاعتي ، وهم لكم عدوٌّ يبنون بكم الغوائل ويوردونكم المهالك ؟ وهذا تقريع وتوبيخ لمن آثر اتباعه وإطاعته . ولهذا قال تعالى « بئسَ لِلظَّالِمِينَ » أى الواضعين الشئ فى غير موضعه « بَدَلًا » بئسَ البديل من الله إبليس ، لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته . قال ابن كثير : وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين ، السعداء والأشقياء ، فى سورة يس^(١) (وَأَمَّا زُورُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) إلى قوله (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)

« مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » استئناف مسوق لبيان عدم استحقاق

(١) [٣٦ / يس / ٥٩-٦٢] .

إبليس وذريته ، للاتخاذ المذكور في أنفسهم ، بعد بيان الصوارف عن ذلك ، من خباثة المحمّد والفسق والعداوة . أى ما أحضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، حين خلقتهما « وَلَا خَلَقَ أَنفُسِهِمْ » أى وما أشهدت بعضهم أيضاً خلق بعض منهم . ونفىُ الإِشهاد كناية عن نفي الاعتضاد بهم والاستعانة على خلق ما ذكر - أبلغ . إذ من لم يشهدفأنى يستعان به ؟ فأنى يصح جعله شريكاً ؟ ولذلك قال سبحانه « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا » أى وما كنت متخذهم أعواناً لخلق ما ذكر ، بل تفردتُ بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير أى وإذا لم يكونوا عضداً فى الخلق ، فما لكم تتخذونهم شركاء فى العبادة ؟ واستحقاقُ العبادة من توابع الخالقية . والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها . والخالقية منفية عن غيره تعالى ، فينتفى لازمها وهو استحقاق عبادة ذلك الغير ، وهم المضلون ، فلا يكونون أرباباً . وإنما وضع (المضلين) موضع الضمير ، ذمّاً لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال ، وتأكيذاً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء . ونحو هذه الآية قوله تعالى (٢) « قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » الآية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا)

« وَيَوْمَ يَقُولُ » أى الحق تعالى « نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ » أى فى دار الدنيا ، أنهم شركاء ليمقذوكم مما أنتم فيه . يقال لهم ذلك على رؤوس الأشهاد تقريباً وتوبيخاً لهم « فَدَعَوْهُمْ » أى فنادوهم للإعانة ، لبقاء اعتقاد شركهم « فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ » أى فلم

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٢ و ٢٣] .

يعينونهم ، لعجزهم عن الجواب ، فضلاً عن الإعانة . وفي إirاده ، مع ظهوره ، تهكم بهم وإيدان بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصریح به « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ » أى بين الكفار وآلهمهم « مَوْبِقًا » أى مهلكا يشتركون فيه ، وهو النار . أو عداوة هى فى الشدة نفس الهلاك . كقول عمر رضى الله عنه (لا يكن حبك كلفًا ، ولا بغضك تلفًا) ويؤيد هذا قوله تعالى (١) (وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّيَسْكَونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِمِبَادِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) قال ابن كثير : وأما إن جعل الضمير فى قوله (بَيْنَهُمْ) عائداً إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو (إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به) - فهو كقوله تعالى (٢) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ) وقال (٣) (يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ) وقال تعالى (٤) (وَأَمْتَرُوا أَلْيَوْمَ أَبْنَاءَ الْمُجْرِمُونَ) وقال تعالى (٥) (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ ، فزِيلْنَا بَيْنَهُمْ) إلى قوله (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا)

« وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ » أى جهنم المحيطة بأنواع الهلاك ووضع المظهر مقام المضمرة تصریحاً بإجرامهم ، وذمماً لهم بذلك « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا » أى أيقنوا بأنهم واقعون فيها « وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا » أى معدلاً ينصرفون إليه . إشارة إلى ما يعاجلهم من الهم والحزن ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه ، عذاب ناجز .

(١) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] (٢) [٣٠ / الروم / ١٤] .

(٣) [٣٠ / الروم / ٤٣] . (٤) [٣٦ / يس / ٥٩] .

(٥) [١٠ / يونس / ٢٨ - ٣٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ » أى نوعنا في هذا القرآن، الجامع للمهمات وأنواع السعادات ، لمصلحة الناس ومنفعتهم ، من كل مثل ، ينبه على مساقي السعادات ومهاوى الضلالات لينذروا به « وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا » أى مجادلة ومخاصمة ومعارضة للحق بالباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا)

« وَمَا مَنَعَ النَّاسَ » أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم وكل من شا كلهم « أَنْ يُؤْمِنُوا » أى من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا الشرك « إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ » أى القرآن والحق الواضح النير « وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ » أى عن المعاصى السالفة « إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولَىٰ » أى طلب إتيانها، أو انتظار إتيانها، وهى عذاب الاستئصال « أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا » أى يرونه عياناً ومواجهةً ، وهو عذاب الآخرة . أو أعم . و (القبل) يضمّتين بمعنى العيان كما فى قراءة (قبلا) بكسر القاف وفتح الباء . أو (قبلاً) بمعنى : أنواعاً متنوعة جمع (قبيل) وقرئ بفتحّتين أى مستقبلاً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَيَجِدِ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا)
 « وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ » أى وما نرسلهم ، قبل إنزال
 العذاب ، إلا لتبشّر من آمن بالزنى والكرامة ، وإنذار من كفر بأن تأتية سنة من مضى
 « وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ » كافتراح الآيات « لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » أى
 ليزيلوا بالجدال ، الحقّ الثابت عن مقره . وليس ذلك بمحصل لهم . وأصل (الإدحاض)
 إزلاق القدم وإزالتها عن موطئها . فاستعير من زلل القدم المحسوس ، لإزالة الحقّ المعقول .
 قال الشهاب : ولك أن تقول : فيه تشبيه كلامهم بالوحل المستكره .
 ثم أنشد لنفسه :

أنا بوحلٍ لإنكاره إزلق أقدام هذى الحُججِ
 « وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا » أى وإنذارهم . أو والذى أنذروا به من العقاب
 « هُزُوًا » أى استهزاء وسخرية وهو أشدّ التكذيب . وصف بالمصدر مبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ
 يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ،
 وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا إِذَا أَبَدًا)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا » كناية عن عدم تدرّجها
 والاتعاظ بها ، بأبلغ أسلوب « وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أى ما عمله من الكفر والمعاصى ،
 وصرف ما أنعم به ، إلى غير ما خلقت له ، فلم يتفكر فى عاقبة ذلك « إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
 أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ » أى جعلنا عليها حجياً وأغطية كثيرة ، كراهة أن يفقهوه ، أى يقفوا
 على كنه ما خلقت النعم من أجله « وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » أى وجعلنا فيها ثقلاً يمنعهم من

استماعه . والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم ، بأنهم مطبوع على قلوبهم . وذلك لإيثارهم الضلال على الهدى كما قال تعالى (١) : (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) .
« وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا » أى فلا يكون منهم اعتداء ،
البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ،

بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا)

« وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ،

بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا » .

الآيات فى هذا المعنى كثيرة . كقوله تعالى (٢) : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا

مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) وقوله (٣) : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ)

و (رَبُّكَ) مبتدأ و (الْغَفُورُ) خبره وتقديم الوصف بالمغفرة على الرحمة ، لأنه أهم بحسب

الحال . إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم ، بعد استيجابهم لها . كما يعرب عنه قوله

عز وجل (لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا) والموعود المذكور هو يوم بدر . أو الفتح المشار إليه

فى كثير من الآيات . أو يوم القيامة . والسكل لاحق بهم . و (الموائل) الملجأ والمنجى .

أى ليس لهم عنه محيص ولا مفر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتَهُم لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)

« وَتِلْكَ الْقُرَىٰ » أى قرى عاد وثمود وأضرابهم « أَهْلَكْتَهُم لَمَّا ظَلَمُوا »

(١) [٦١ / الصف / ٥] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٤٥] . (٣) [١٣ / الرعد / ٦] .

بالكفر والظلمان « وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا » أى وقتاً معيناً لا محيد لهم عنه . وهذا استشهاد على ما فعل بقریش من تعيين الموعد ، ليتنبهوا لذلك ، ولا يعترفوا بتأخر العذاب . ثم أشار تعالى إلى نبأ موسى مع الخضر عليهما السلام ، ذلك النبأ الذى تضمن من الفوائد والحكم وأعلام النبوة ، ما لا يخفى على متبصر . كما ستقف على شذرات من ذلك .

فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا)

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا » أى اذ كر وقت قول موسى لفتاه ، لا أبرح ، أى لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين . أى المكان الذى فيه ملتقى البحرين . فأجد فيه الخضر . أو أسير زماناً طويلاً إن لم أجد نعمة ، فأتيقن فوات المطلب .

قال المهايى أى اذ كر للذين إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ، لتكبرهم عليك ، إنكم لستم بأعلم من موسى ولا أرشد منه . ولست أقل من الخضر فى الهداية بل أعظم . لأنها هداية فى الظاهر والباطن . وهداية الخضر إنما هى فى الباطن ، ولا تحتاجون فى تحصيله إلى تحمل المشاق ، واحتاج إليه موسى . و(الفتى) الشاب . قال الشهاب : العرب تسمى الخادم فتى ، لأن الغالب استخدام من هو فى سن الفتوة . وكان يوشع خادم موسى عليه السلام ومحبا له ، وذا غيرة على كرامته . ولذلك اختصه موسى رفيقاً له وخادماً . وصار خليفة من بعده على بنى إسرائيل . وفتح عليه تعالى بيت المقدس ونصره على الجبارين .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا)

« فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا » أى البحرين « نَسِيَا حُوتَهُمَا » أى خبر حوتهما ، وتفقد أمره ، وكانا تزوداه .

« فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ » أى طريقه « فِي الْبَحْرِ سَرَبًا » أى مثل السرب فى الأرض ، واضح المسلك ، معجزة جملة علامة المطلوب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْمَةٍ إِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا)

« فَلَمَّا جَاوَزَا » أى جمع بينهما ، وهو المكان الذى نسيا فيه الحوت « قَالَ لِفَتْمَةٍ إِنَّا غَدَاءَنَا » أى ما نتغدى به « لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا » أى تعباً ومشقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ

إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا)

« قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ » أى خبر الحوت . وإسناد النسيان إليهما ، أولاً ، إما بمعنى نسيان طلبه ، والذهول عن تفقده ، لعدم الحاجة إليه . وإما للتغليب ، بناء على أن الناسى إنما كان يوشع وحده . فإنه نسى أن يخبر موسى بشأنه العجيب ، فيكون كقوله تعالى^(١) : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من المالح « وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » أى لك . و (أن أذكره) بدل من الهاء فى (أنسانيه) أى وما أنساني ذكره إلا الشيطان . وقد قرأ حفص بضم الهاء من غير صلة وصل ،

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

والباقون بكسرها « وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا » أى أمرأ عَجَبِيًّا ، إذ صار الماء عليه سرباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ، فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا)

« قَالَ » أى موسى « ذَلِكَ » أى المكان الذى اتخذه فيه سبيله هرباً « مَا كُنَّا نَبْغُ » أى نطلب فيه الخضر . لأنه أمانة المطلوب . وقرئ فى السبع بإثبات الياء بعد العين، وصلا لا وقفاً. وإثباتها فى الحالىن. وبجذفها كذلك « فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا » أى رجعا ماشيين على آثار أقدامهما يتبعانها « قَصَصًا » أى اتباعاً لثلا يفوتهما الموضع ثانياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا)

فوجدَا « أى فأتيا الموضع المنسى فيه الحوت ، فوجدا « عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا » التنكير للتفخيم، والإضافة فيه للتشريف . والجمهور على أنه الخضر. وسنتكلم على جملة من نبئه، بمونه تعالى، بعد تمام القصة « ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا » أى آتيناه رحمة لدنية، اختصاصناه بها « وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا » أى علماً جليلاً آثرناه . وهو علم لدنى يكون بتأييد ربانى . وسندكر إن شاء الله تعالى حقيقة العلم اللدنى فى آخر هذا النبأ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ لَهُ وَمُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا)

« قَالَ لَهُ وَمُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ » أى أحببك « عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ » أى من لدن ربك « رُشْدًا » أى علماً ذا رشد. أى هدى وإصابة خير .

قال القاضى : وقد راعى فى ذلك غاية التواضع والأدب . فاستجهل نفسه ، واستأذن

أن يكون تابعاً له ، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه ، بتعليم بمض ما أنعم الله عليه . أى وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

[٦٨] (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)

« قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » أى بوجه من الوجوه . ثم علل معتدراً بقوله « وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا » أى من أمور سترها ، إن صحبتنى ، ظواهرها منا كبر وبواطنها لم يحط بها خبرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)

« قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » أى لا أخالفك فى شىء . قال الزمخشري : رجا موسى عليه السلام ، لحرصه على العلم وازدياده ، أن يستطيع معه صبراً ، بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر . فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله . علماً منه بشدة الأمر وصعوبته ، وإن الحمية التى تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شىء لا يطاق . هذا مع علمه أن النبى المعصوم ، الذى أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، برىء من أن يباشر ما فيه غمزة فى الدين . وأنه لا بد ، لما يستسمح ظاهره ، من باطن حسن جميل . فكيف إذا لم يعلم ؟ انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)

« قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا » أى

لا تفأخنى بالسؤال عن شيء أنكرته منى ، ولم تعلم وجه صحته ، حتى أبتدئك ببيانه .
وهذا من آداب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكَبَا فِي الْسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)

« فَأَنْطَلَقَا » أى على ساحل البحر يطلبان سفينة « حَتَّىٰ إِذَا رَكَبَا فِي الْسَّفِينَةِ

خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا » أى عظيمًا من إتلاف السفينة
وقتل الجماعة الكثيرة بغير ذنب ، وكفران نعمة الحمل بغير نول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

« قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » ذكره الخضر بما تقدم من الشرط .

يعنى هذا الصنيع فعلته قصداً . وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر على فيها .
لأنك لم تحط بها خبراً . إذ لها سر لا تعلمه أنت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالَ لَا تُوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا)

« قَالَ » أى موسى « لَا تُوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ » من الشرط . فإن الواخذه به تفضى

إلى العسر . والمراد التماس عدم المؤاخذه لقيام المانع وهو النسيان « وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسرًا » أى لا تحمل علىّ من أمرى ، فى تحصيل العلم منك ، عسرًا ، لثلا يلجئنى إلى تركه . أى لا تعسرّ علىّ متابعتك ، بل يسرها علىّ ، بالإغضاء وترك المناقشة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا)

« فَأَنْطَلَقَا » أى بعد أن خرجا من السفينة إلى الساحل « حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ » قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ « أى أنها لم تقتل نفساً فتقتل . بل هى زكية طاهرة من موجبات القتل « لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا » أى منكراً . أو أنكراً من الأول . لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسدّ ، وهذا لا سبيل إلى تداركه بوجه ما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

« قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » تأكيد فى التذكار بالشرط الأول . ونكتة زيادة (لَكَ) هو - كما قال الزمخشريّ - زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية ، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية . كما لو أتى إنسان بما نهىته عنه ، فلمته وعتفته ، ثم أتى به مرة أخرى فإنك تزيد فى تعنيفه . قال فى (المثل السائر) : وهذا موضع تدق عن العثور عليه مبادرة النظر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قَالَ إِنْ سَأَلْتِكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْ بَعْدِهَا فَلَا تَصْحَابِنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا)

« قَالَ » أى موسى « إِنْ سَأَلْتِكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْ بَعْدِهَا » أى بعد هذه المرة « فَلَا تَصْحَابِنِي »

قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا « أى وجدت من جهتي عذراً . إذ أعدتَ إلى مرة بعد مرة ، نغالفتك ثلاث مرات ، بمقتضى طبع الاستعجال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَيْتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَفْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) « فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَيْتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ » اختلف في تسميتها .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : الخلاف فيها كالخلاف في مجمع البحرين . ولا يوثق بشيء منه « اسْتَفْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا » أى امتنعوا من أن يطعموها الطعام الذى هو أحق ضيافتهما عليهم . وقرئ (يُضَيِّفُوهُمَا) من الإضافة . يقال : ضافه إذا نزل به ، وأضافه وضيّفه : أنزله ليطعمه في منزله ، على وجه الإكرام « فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ » أى ينهدم بقرب . من (انقض الطائر) إذا أسرع سقوطه . والإرادة مستعارة للمدانة والمشاركة . لما فيهما من الميل . استعارة تصريحية أو مكنية وتخييلية ، أو هي مجاز لغوى مرسل بعلاقة سبب الإرادة ، لقرب الوقوع .

وقد أوسع الزمخشري ، عليه الرحمة من الشواهد على مثل هذا المجاز . فانظره « فَأَقَامَهُ » أى عمره وأصلحه . « قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى لو طلبت على عملك جملاً حتى تتمتع به . ففيه لوم على ترك الأجرة ، مع مسيس الحاجة إليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) « قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله (فَلَا تُصَحِّبْنِي) أو إلى الاعتراض الثالث . أو إلى الوقت الحاضر . « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ

صَبْرًا « أى بآل ما لم تصبر على ظاهره ، وبما قبلته . وهو خلاص السفينة من اليد العادية ، وخلص أبوى الغلام من شره ، مع الفوز بالبدل الأحسن ، واستخراج اليتيمين للكنز . قال أبو السعود : وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر ، دون أن يقال (بتأويل ما فعلت) أو (بتأويل ما رأيت) ونحوها ، نوع تعريض به عليه السلام وعتاب . ثم أخذ الخضر فى تفسير ما أشكل أمره على موسى ، وما كان أنكر ظاهره . وقد أظهر الله الخضر ، عليه السلام ، على باطنه . فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

« أَمَّا السَّفِينَةُ » أى التى خرقتها « فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ » أى لفقراء يحترفون بالعمل فى البحر ، لنقل الناس من ساحل إلى آخر « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا » أى إنما خرقتها لأعيبها . لأنهم كانوا يبرون بها على ملك من الظلمة ، يأخذ كل سفينة سليمة جيدة ، غصبًا . فأردت أن أعيبها لأرده عنها ، لعيبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا)
[٨١] (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)

« وَأَمَّا الْغُلَامُ » أى الذى قتلته « فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا » أى لو تركناه « أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا » أى ينزل بهما طغيانه وكفره ويلحقه بهما . لكونه طبع على ذلك . فيخشى أن يبدلهما بدائه « فَأَرَدْنَا » أى بقتله « أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً » أى طهارة عن الكفر والطغيان « وَأَقْرَبَ رُحْمًا » أى رحمة بأبويه ، وبرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ وَ عَنِّى ، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)
 « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا » أى قوتهما بالعقل وكمال الرأى
 « وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا » ليتصرفا فيه « رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ » أى تفضل بها عليهما .
 و (رحمة) مفعول له . أو مصدر مؤكد لـ (أراد) فإن إرادة الخير رحمة « وَمَا فَعَلْتُهُ وَ عَنِّى »
 أى ما رأيت منى « عَنِّى » أى عن اجتهادى ورأى ، وإنما فعلته بأمر الله تعالى
 « ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » أى من الأمور التى رأيتها . أى ماله وعاقبته .
 قال أبو السعود (ذَلِكَ) إشارة إلى العواقب المنظومة فى سلك البيان . وما فيه من معنى البعد
 للإيدان يبعد درجتها فى الفخامة . و (تَسْطِعْ) مخفف (تستطع) بحذف التاء .

تنبيهات

فى بعض ما اشتمل عليه هذا النبأ من الأحكام واللطائف والفوائد الساميات :
الأول - قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآيات أنه لا بأس بالاستخدام واتخاذ
 الرفيق والخادم فى السفر . واستحباب الرحلة فى طلب العلم . واستزادة العالم من العلم واتخاذ
 الزاد للسفر، وأنه لا ينافى التوكل . ونسبة النسيان، ونحوه من الأمور المكروهة، إلى الشيطان،
 مجازاً وتادباً عن نسبتها إلى الله تعالى . وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه فى المرتبة .
 واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه فى عدم تعليمه مما لا يحتمله طبعه . وتقديم المشيئة فى
 الأمر، واشتراط التبوع على التابع . وأنه يلزم الوفاء بالشروط . وأن النسيان غير مؤاخذ به .

وأن (الثلاث) اعتباراً في التكرار ونحوه . وأنه لا بأس بطلب الغريب الطعام والضيافة . وأن صنع الجميل لا يترك ولو مع اللثام . وجواز أخذ الأجر على الأعمال . وأن المسكين لا يخرج عن المسكنة بكونه له سفينة أو آلة يكتسب بها ، أو شيء لا يكتفيه . وأن النصب حرام . وأنه يجوز إتلاف بمض مال الغير ، أو تعييبه ، لوقاية باقيه ، كمال المودع واليتيم . وإذا تعارض مفسدتان ارتكب الأخف . وأن الولد يحفظ بصلاح أبيه . وأنه يجب عمارة ما يخاف منه ، ويحرم إهالها إلى أن تخرب . وأنه يجوز دفن المال في الأرض . انتهى .

وقال البيضاوي : ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه . ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه ، فلعل فيه سرّاً لا يعرفه . وأن يداوم على التعلم ، ويتذلل للعلم ، ويراعي الأدب في المقال . وأن ينبه المجرم على جرمه ، ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ، ثم يهاجر عنه . انتهى .

ومن فوائد الآية - كما في (فتح الباري) - استحباب الحرص على لقاء العلماء وتبجثم المشاق في ذلك . وإطلاق (الفتى) على التابع واستخدام الحر . وطواعية الخادم لمخدومه . وعذر الناس . وجواز الإخبار بالتمب ، ويلحق به الألم من مرض ونحوه . ومحل ذلك إذا كان على غير سخط من المقدور . ومنها أن المتوجه إلى ربه يمان ، فلا يسرع إليه النصب . وفيها جواز طلب القوت . وطلب الضيافة . وقيام العذر بالمرة الواحدة ، وقيام الحجة بالثانية . وفيها حسن الأدب مع الله وأن لا يضاف إليه ما يستهجن لفظه ، وإن كان الكل بتقديره وخلقه ، لقول الخضر عن السفينة (فأردت أن أعيها) وعن الجدار (فأراد ربك) ومثل هذا قوله (١)

عَلَيْهِ (والخير بيدك والشر ليس إليك) انتهى .

ومن فوائدها إطلاق (التقربة) على (المدينة) لقوله : (أهل قرية) ثم قوله : (لغلمين يتيمين في المدينة) .

(١) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٠١ ، من حديث طويل (طبعتنا) .

الثاني - ذكر الناصر في (الاتصاف) : شذرات من لطائف بعض الآي المذكورة .
فثارها عنه .

قال عليه الرحمة : ورد في الحديث أن موسى عليه السلام لم ينصب ، ولم يقل : لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً ، إلا منذ جاوز الموضع الذي حدّه الله تعالى له . فعمل الحكمة في إنساء يوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام ، لئلا الله تعالى على المسافر في طاعة وطلب علم ، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه . وتلك سنة الله الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات ، أن ييسرها ، ويحمل عنه مؤنتها ، ويتكفل به مادام على تلك الحالة . وموضع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته ، بونا بيتاً ، والله أعلم . وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً لذلك ، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته ، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، إذا قص عليهم القصة . فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمر بها الناس ، ولكن ليشمرا لخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها ، عاجلاً وآجلاً . والله أعلم .

ثم قال عليه الرحمة : ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار ، الالتهاب والحمية للحق ، أنه قال حين خرق السفينة (أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) ، ولم يقل (لتغرقنا) ففسى نفسه واشتغل بفسيره ، في الحالة التي كل أحد فيها يقول (نفسى نفسى) لا يلوى على مال ولا ولد . وتلك حالة الغرق . فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياه على نصيح الخلق والشفقة عليهم والرافة بهم . صلوات الله عليهم أجمعين ، وسلامه .

ثم قال عليه الرحمة على قول الزمخشري (فإن قلت قوله : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) مسبب عن خوف الغضب عليها ، فكان حقه أن يتأخر عن السبب ، فلم قدم عليه ؟) (قلت) النية به التأخير . وإنما قدم للعناية . ولأن خوف الغضب ليس هو السبب وحده ، ولكن مع كونها للمساكين . فكان بمنزلة قولك . (زيد ظنى مقيم) .

فقال عليه الرحمة : كأنه جعل السبب في إعادتها كونها لمساكين . ثم بين مناسبة هذا

السبب للمسبب ، بذكر عادة الملك في غضب السفن . وهذا هو حد الترتيب في التعليل أن يرتب الحكم على السبب ، ثم يوضح المناسبة فيما بعد . فلا يحتاج إلى جعله مقدماً ، والنية تأخيره . والله أعلم .

ثم قال : ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي ، والمخالفة بينها في الأسلوب عجباً . ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) وأسند في الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه في قوله : (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا) ، (فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِمَهُمَا) ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى ، لأن المراد (ثم عبت) فتأدب بأن نسب الإعابة إلى نفسه . وأما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك (أمرنا بكذا أو دبرنا كذا) وإنما يعنون (أمر الملك ودبر) ويدل على ذلك قوله في الثالثة : (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا) فانظر كيف تغيرت هذه الأساليب ، ولم تأت على نمط واحد مكرر ، يعجبها السمع وينبو عنها ، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة . فسبحان اللطيف الخبير .

الثالث - قال الخفاجي : في إعادة لفظ (الأهل) هنا ، يعني في قوله تعالى : (أَسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا) إثر قوله (أَتَيْنَا أَهْلَ قَرْيَةٍ) سؤال مشهور . وقد نظمه الصلاح الصفدي سائلًا عنه السبكي في قصيدة منها :

رأيت كتابَ الله أعظمَ معجزٍ	لأفضل من يهْدِي به الثقلانِ
ومن جملة الإعجاز كون اختصاره	بإيجاز ألفاظ وبسط معاني
ولكنني في (الكهف) أبصرت آية	بها الفكر، في طول الزمان عناني
وما هي إلا (استطعما أهلها) فقد	نرى (استطعماهم) مثله ببيان
فما الحكمة الغراء في وضع ظاهر	مكان ضمير ؟ إن ذلك لِسَانِ

يعني أنه عدل عن الظاهر بإعادة لفظ (أهل) ولم يقل (استطعماها) لأنه صفة القرية .

أو (استطمعهم) لأنه صفة (أهل) فلا بد له من وجه . وقد أجابوا عنه بأجوبة مطولة نظماً ونثراً . والذي تحرر فيه أنه ذكر (الأهل) أولاً ولم يحذف إيجازاً ، سواء قدر أو تجوز في القرية ، كقوله ^(١) : (وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ) لأن الإتيان ينسب للمكان . نحو (أتيت عرفات) ولمن فيه نحو (أتيت بغداد) فلو لم يذكر كان فيه التباس محل . فليس ماهنا نظير تلك الآية لامتناع سؤال نفس القرية ، فلا يستعمل استعمالها . وأما (الأهل) الثاني فأعيد لأنه غير الأول . وليست كل معرفة أعيدت عيناً كما بينوه . لأن المراد به بعضهم . إذ سؤالهم فرداً مستبعد . فلو لم يذكر ، فهم غير المراد . أما لو قيل : (استطمعهم) فظاهر . وأما لو قيل (استطمعها) فإن النسبة إلى المحل تفيد الاستيعاب ، كما أثبتوه في محله . وأما إتيان جميع القرية فهو حقيقة في الوصول إلى بعض منها . كما يقال : (زيد في البلد) أو (في الدار) وقيل : إن الأهل أعيد للتأكيد كقوله ^(٢) :

ليت الغراب غداة ينبعُ بيننا كان الغرابُ مقطَّعَ الأوداجِ

أو لكراهة اجتماع ضميرين متصلين ، ابشاعته واستطالته ، وثمة أجوبة أخرى .

الرابع - أبدى بعضهم سرّاً للتعبير أولاً (بتسطع) ثم أخيراً (بتسطع) بحذف التاء

قال : لما أن فسر الخضر لموسى ، وبين له تأويل ما لم يصبر معه ، ووضحه وأزال المشكل ، قال (تسطع) بحذف التاء . وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً . فقال : (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف . كما قال ^(٣) : (فَمَا أُسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) وهو الصعود إلى أعلاه ، (وَمَا أُسْتَطَعُوا لَهُ وَنَقَبًا) وهو أشق من ذلك .

(١) [١٢ / يوسف [٨٢] . (٢) قائله جرير . ديوانه ص ٨٩ ، من قصيدة يمدح

الحجاج ، ومطلعها :

هاج الهوى بفؤادك المهتاج فانظر بتوضيح ، باكرُ الأحجاجِ

وفيه هناك (ينبع بالنوى) عوضاً عن (ينبع بيننا) . (٣) [١٨ / الكهف / ٩٧] .

فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى . انتهى .

وقال الشهاب : وإنما خص هذا بالتخفيف لأنه لما تكررت في القصة ناسب تخفيف الأخير منه . وأما كونه للإشارة إلى أنه خف على موسى ﷺ مالم يقه ببيان سببه - فيبعد أنه في الحكاية ، لا المحكي . انتهى .

وما أطف قول الشهاب في مثله : هذه زهرة لا تحتمل هذا الفرق .

الخامس - قال الإمام السبكي رحمه الله : ما فعله الخضر عليه الصلاة والسلام من قتل الغلام لكونه طبع كافرأ ، مخصوص به . لأنه أوحى إليه أن يعمل بالباطن ، وخلاف الظاهر الموافق للحكمة . فلا إشكال فيه . وإن علم من الشريعة أنه لا يجوز قتل صغير لاسيما بين أبوين مؤمنين . ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه ، كما أطلع الخضر عليه السلام ، لم يجزله ذلك . وما ورد عن ابن عباس (لما كتب إليه نبذة الحروري : كيف قتله وقد نهى النبي ﷺ عن قتل الولدان ؟ فكتب إليه : إن كنت علمت من حال الولدان ، ما علمه عالم موسى ، فلك أن تقتل) فإنما قصد به ابن عباس الحاجة والإحالة على ما لم يمكن قطعاً ، لطمعه في الاحتجاج بقصة الخضر عليه الصلاة والسلام . وليس مقصوده أنه إن حصل ذلك يجوز . لأنه لا تقتضيه الشريعة . وكيف يقتل بسبب لم يحصل ؟ والمولود لا يوصف بكفر حقيق ولا إيمان حقيق . وقصة الخضر تحمل على أنه كان شرعاً مستقلاً به . وهو نبي . وليس في شريعة موسى أيضاً ، ولذا أنكره . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وأما من استدل به على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما ، فصحيح . لكن فيما لا يعارض منصوص الشرع . فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفساً كثيرة ، قبل أن يتعاطى شيئاً من ذلك . وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه .

وقال ابن بطال : قول الخضر (وأما الغلام فكان كافراً) هو باعتبار ما يؤول إليه أمره أن لو عاش حتى يبلغ . واستجاب مثل هذا القتل لا يعلمه إلا الله . والله أن يحكم في خلقه بما يشاء قبل البلوغ وبعده .

أقول : مفاد الآية ، أن إنكار موسى لقتل الغلام لكونه جناية بغير موجب . ولذا قال (بغير نفس) لا لكونه صغيراً لم يبلغ الحنث . لأن الآية لاتقيده . وقد يكون كبيراً . فقد قال اللغويون : الغلام الطائر الشارب ، أو من حين يولد إلى أن يشبّ ، والكهل أيضاً . ومن الأخير قول موسى في قصة الإسراء عن النبي ^(١) صلى الله عليه وسلم (أبكى لأن غلاماً بعث بعدى) . الخ نعم ربما يشعر بصغره حديث البخاري ^(٢) : وجد غلاماًنا يلعبون فأخذ غلاماً فذبجه قال موسى : أقتلت نفساً لم تعمل بالحنث . ولكن لانصّ فيه ، فتأمل .

السادس : أكثر العلماء على أن موسى المذكور في الآية ، هو موسى بن عمران صاحب الآيات الشهيرة وصاحب التوراة . وذهب نوف البكالي - تابعي صدوق ابن امرأة كعب الأحبار أو ابن أخيه - إلى أنه ليس بموسى بن عمران كما في البخاري ^(٣) . ووقع في رواية ابن إسحاق عن سعيد بن جبير ، عند (النسائي) قال : كنت عند ابن عباس وعنده قوم من أهل الكتاب ، فـ قال بعضهم : يا أبا عباس ! إن نوحاً يزعم عن كعب الأحبار أن موسى الذي طلب العلم إنما هو موسى بن منسا . أي ابن إفرائيم بن يوسف عليه السلام . فقال ابن عباس : أسمعت ذلك منه ياسعيد؟ قلت : نعم . قال : كذب نوح . وفي رواية البخاري : كذب عدو الله . وإنما قال ذلك مبالغة في الإنكار والتنفير من تصديق مقالته .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٦ - باب ذكر الملائكة ، حديث ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة . (٢) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ٤٤ - باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم ، فيكمل العلم إلى الله ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبي بن كعب . (٣) انظر التخريج السابق .

قال الرازي: كان ليوسف ولدان إفرايم . ومنسا . فولد إفرايم نون وولد نون يوشع صاحب موسى وولى عهده بعد وفاته . وأما ولد منسا ، قيل إنه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران . ويزعم أهل التوراة أنه هو الذى طلب هذا العلم ليتعلم . والخضر هو الذى خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار، وموسى بن منسا معه . هذا هو قول جمهور اليهود . واحتج القفال على صحة القول بأنه موسى صاحب التوراة أنه لم يذكر فى القرآن وهو المراد . فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه . ولو كان المراد غيره لوجب تعريفه بصفة تميزه وتزيل الاشتباه عنه ، والله أعلم . انتهى .

وأما ابن عباس فكان سنده فى ذلك ، كما فى البخارى^(١) ، ما حدثه به أبى بن كعب ورفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ أن موسى سئل هل فى الأرض أحد أعلم منك؟ فقال: لا . أو حدثته نفسه بذلك . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . وأراد تعريفه أن من عباده فى الأرض من هو أعلم منه ، لئلا يحتم على ما لا علم له به . وإذا صح أن موسى هو صاحب التوراة ، فيكون المراد بفتاه يوشع . وكان موسى اختصه برفقته لكونه صادقاً فى خدمته ، والغيرة على كرامته ، والحب له . ولذا صار خليفته بعده، وفتح عليه بيت المقدس ونصر على الجبارين ، كما هو معروف .

السابع: قال الآكثرون: إن صاحب موسى المعبر عنه بقوله تعالى (عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا) هو الخضر . قالوا: سمى بذلك لأنه ما جلس على الأرض إلا اخضرت . وقد صح عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى . فقال ابن عباس: هو خضر ، فمرَّ بهما أبى بن كعب . فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبى هذا ، فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لقيمه . فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينا موسى فى ملاء من بنى إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان أحد أعلم منك؟ قال موسى: لا . فأوحى الله إلى موسى: بلى . عبدنا خضر .

(١) انظر الحاشية رقم ١ بالصفحة السابقة .

فسأل موسى السبيل إلى لقّيه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت فارجع فإنك ستلقاه . فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر . فقال موسى (ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا) فوجدا خضراً . وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه .

الثامن : اختلف أهل العلم في نسب الخضر وفي كونه نبياً وفي طول عمره وبقاء حياته على أقوال كثيرة . فمن قائل بأنه ابن آدم لصلبه أو ابن قاييل أو ابن اليسع ، أو غير ذلك . وكله مما ليس فيه إثارة من علم ، وقد احتج من قال إنه نبي بقوله تعالى (وَمَا فَعَلْتُهُ وَ عَن أَمْرِي) لأن الظاهر من هذا أنه فعله بأمر الله . والأصل عدم الوساطة . وقيل : كان ولياً . وقيل : مقامه دون النبوة وفوق الصّدّيقية فهو مقام برزخي ، له وجه إلى النبوة ووجه إلى الولاية . وقيل : إنه ملك من الملائكة . وأما تميمه فيروى عن ابن عباس أنه أنسى للخضر في أجله حتى يكذب الدجال .

قال النووي في (التهذيب) قال الأكثرون : هو حيّ موجود بين أظهرنا . وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة . وحكاياتهم في رؤيته ، والاجتماع به ، والأخذ عنه ، وسؤاله ، ووجوده في المواضع الشريفة ، أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تذكر . وقال البخاري وطائفة من أهل الحديث : إنه مات .

وقال الحافظ أبو الخطاب بن دحية : وأما رواية اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيبه لأهل البيت ، فلا يصح من طرقها شيء . ولا يثبت اجتماعه مع أحد من الأنبياء ، إلا مع موسى . وجميع ما ورد في حياته لا يصح منه شيء ، باتفاق أهل النقل . وأما ما جاء من المشايخ فهو مما يتعجب منه . كيف يجوز لعاقل أن يلتقي شيخاً لا يعرفه فيقول له : أنا فلان فيصدقه؟؟؟ . انتهى كلامه ملخصاً .

وتمسك من قال بتميمه بقصة عين الحياة ، واستند إلى ما وقع من ذكرها في صحيح البخاري

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٨ - سورة الكهف ، ٤ - باب

قوله فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبي بن كعب .

وجامع الترمذى . ولكن لم يثبت ذلك مرفوعاً .
 وقال أبو حيان في (تفسيره) : الجمهور على أن الخضر مات . وبه قال ابن أبي الفضل
 المرسى . لأنه لو كان حياً لزمه الجحى إلى النبي ﷺ والإيمان به واتباعه .
 وقد روى عنه ﷺ أنه قال : لو كان موسى حياً ما سمعه إلا اتباعى . وبذلك جزم
 ابن المناوى وإبراهيم الحربى وأبو طاهر العبادى . ومن جزم بأنه غير موجود الآن، أبو يعلى
 الحنبلى وأبو الفضل بن ناصر والقاضى أبو بكر بن العربى، وأبو بكر بن النقاش وابن الجوزى .
 واستدل على ذلك بأدلة منها قوله تعالى (١) (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ) قال أبو الحسين
 ابن المناوى : بحثت عن تعمير الخضر ، وهل هو باق أم لا ! فإذا أكثر المغفلين مفترون بأنه
 باق من أجل ما روى في ذلك . والأحاديث المرفوعة في ذلك واهية . والسند إلى أهل الكتاب
 ساقط لعدم ثقتهم . وخبر مسleme بن مصقلة كالخرافة . وخبر رياح كالريح . وما عدا ذلك من
 الأخبار ، كلها واهية الصدر والأعجاز . لا يخلو حالها عن أمرين : إما أن تكون أدخلت
 على الثقات استغفلاً ، أو يكون بعضهم تعمد ذلك . وقد قال تعالى (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن
 قَبْلِكَ الْخُلْدَ) .

قال صاحب (فتح البيان) : والحق ما ذكرناه عن البخارى وأضرابه في ذلك .
 ولا حجة في قول أحد كائناً من كان إلا الله سبحانه ورسوله ﷺ . ولم يرد في ذلك نص
 مقطوع به ، ولا حديث مرفوع إليه ﷺ ، حتى يعتمد عليه ويصار إليه . وظاهر الكتاب
 والسنة نفي الخلد ، وطول التعمير لأحد من البشر . وهما قاضيان على غيرها ولا يقضى غيرها
 عليهما . ومن قال إنه نبي أو مرسل أو حتى باق ، لم يأت بحجة نيرة ولا سلطان مبين .
 وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل (٢) . انتهى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٤] . (٢) منسوب إلى معقل بن يسار بن عبد الله بن معبر

ابن حرقاق .. الخ وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر معجم البلدان : المجلد الخامس ص ٣٢٣
 (طبعة بيروت) .

وقال تقي الدين بن تيمية عليه الرحمة والرضوان في بعض فتاويه، في ترائي الجن للإنس في بعض البلاد، مأمثاله : وفيه كثير من الجن وهم رجال الغيب الذين يرون أحياناً في هذه البقاع قال تعالى^(١) (وَأَنَّهُ وَكَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُودُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) وكذلك الذين يرون الخضر أحياناً هو جنى رؤوه . وقد رآه غير واحد ممن أعرفه وقال (إنني) وكان ذلك جنياً لبس على المسلمين الذين رؤوه . وإلا فالخضر الذي كان مع موسى عليه السلام مات . ولو كان حياً على عهد رسول الله ﷺ ، لوجب عليه أن يأتي إلى النبي ﷺ ويؤمن به ويجاهد معه . فإن الله فرض على كل نبي أدرك محمداً ، أن يؤمن به ويجاهد معه . كما قال الله تعالى^(٢) (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ وَقَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَأَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) قال ابن عباس رضي الله عنه : لم يبعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق على أمته؛ لئن بُعث محمدٌ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر ، ولا أنه أتى إلى النبي ﷺ . فإن الصحابة كانوا أعلم وأجل قدراً، من أن يلبس الشيطان عليهم . ولكن لبس على كثير من بعدهم . فصار يتمثل لأحدهم في صورة النبي ويقول : أنا الخضر . وإنما هو شيطان . كما أن كثيراً من الناس يرى ميتة خرج ، وجاء إليه ، وكلمه في أمور ، وقضاء حوائج ، فيظنه الميت نفسه . وإنما هو شيطان . تصور بصور . انتهى .

التاسع - دل قوله تعالى (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) ، على أن من العلم علماً غيبياً وهو المسمى بالعلم اللدني . فالآية أصل فيه . وقد ألف حجة الإسلام الغزالي، عليه الرحمة، رسالة في إثبات هذا العلم . ردّ على من أنكرو وجوده . وذكر عليه الرحمة أولاً طرفاً من مراتب العلوم الظاهرية المعروفة . ثم جوّد الكلام في إثباته . ولا بأس بإيراد شذرة مما قرره فيه . قال

(١) [٧٢ / سورة الجن / ٦] . (٢) [٣ / آل عمران / ٨١] .

قدس سره . أعلم أن العلم الإنسانيّ يحصل من طريقين: أحدهما من التعليم الإنسانيّ والثاني من التعليم الربانيّ . أما الطريق الأول ، وهو التعليم الإنسانيّ ، فطريق معهود مسلوك محسوس . ويكون على وجهين : أحدهما من خارج وهو التحصيل بالتعلم . والآخر من داخل وهو الاشتغال بالتفكير . والتفكير في الباطن بمنزلة التعلم في الظاهر . فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئيّ . والتفكير استفادة النفس من النفس الكلّيّ . والنفس الكلّيّ أشد تأثيراً وأقوى تلميهاً من جميع العقلاء والعلماء . والمعلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة . كالبذر في الأرض والجوهر في قعر البحر ، أو في قلب المعدن . والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء الذي بالقوة إلى الفعل . والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل . فنفس المتعلم تشبّه بنفس العالم وتقترب إليه بالنسبة . فالعالم بالإفادة كالزراع . والمتعلم بالاستفادة كالأرض . والعلم الذي هو بالقوة كالبذر . والذي هو بالفعل ، كالنبات . وإذا كملت نفس المتعلم يكون كالشجر الثمر أو كالجوهر الظاهر من قعر البحر . وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم في طول المدة . ويحمل التعب في طلب الفائدة ، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحسّ يستغنى الطالب بقليل التفكير عن كثير التعلم ، فإن نفس العاقل تجرد من الفوائد بتفكير ساعة ، ما لا تجرد نفس الجاهل بتعلم سنة . فإذا نبت بعض الناس يحصلون العلم بالتعلم وبعضهم بالتفكير . ثم قال قدس سره : والطريق الثاني وهو التعليم الربانيّ . وذلك على وجهين : إلقاء الوحي وهو النفس إذا كملت بذاتها تزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل . وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا وينقطع نسبها عن الأمانى الفانية . وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها . وتمسك بوجود مبدعها . وتعتمد على إفادته وفيض نوره . فإله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالاً كلياً ، وينظر إليها نظراً إلهياً ، ويتخذ منها لوحاً ، ومن النفس الكلّيّ قلماً وينقش فيها علومه . ويصير العقل الكلّيّ كالمعلم والنفس القدسيّ كالمتعلم . فتحصل جميع العلوم لتلك النفس وتنتقش فيها جميع الصور

من غير تعلم وتفكر . ومصدق هذا قول الله عز وجل لنبيه ﷺ (١) : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ) فلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق . لأن محصله عن الله تعالى بلا واسطة ووسيلة . وبيان هذه الكلمة يوجد في قصة آدم والملائكة عليهم الصلاة والسلام . فإنهم طول عمرهم حصلوا بفنون الطرق كثير العلوم . حتى صاروا أعلم المخلوقين وأعرف الموجودات . وآدم لما جاء ، ما كان عالماً . لأنه ما تعلم ولا رأى معلماً . فتفاخرت الملائكة عليه وتجبروا وتكبروا وقالوا (٢) (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) ونعلم حقائق الأشياء . فرجع آدم إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جملة المكونات ، وأقبل بالاستمانة على الرب تعالى ، فعمله الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال (٣) : (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ) أو صغر حالهم عند آدم وقل علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم ، ففرقوا في بحر العجز (٤) : (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) فقال تعالى (٥) : (يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) فأنبأهم آدم عن مكونات العلم ومستترات الأمر . فتقرر الأمر عند العقلاء ؛ أن العلم الغيبي المتولد عن الوحي ، أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة . وصار علم الوحي إرث الأنبياء وحق الرسل ، حتى أغلق الله باب الوحي في عهد سيدنا محمد ﷺ . فكان رسول الله خاتم النبيين ، وكان أعلم الناس وأفصح العرب والعجم ، وكان يقول (٦) : (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وقال لقومه (٧) : (أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله) وإنما كان عمله أكل وأشرف وأقوى ، لأنه حصل عن التعليم الرباني ، وما اشتغل قط بالتعلم والتعليم الإنساني فقال تعالى (٨) : (عَلَّمَهُ وَشَدِيدُ الْقُوَى) .

(١) [٤ / النساء / ١١٣] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٠] .

(٣) [٢ / البقرة / ٣١] . (٤) [٢ / البقرة / ٣٢] .

(٥) [٢ / البقرة / ٣٣] . (٦) قال في (أسنى المطالب) : سنده ضعيف ومعناه صحيح .

(٧) أخرجه البخاري في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١ - باب الترغيب في النكاح ،

حديث رقم ٢٠٩٩ ، عن أنس بن مالك . (٨) [٥٣ / النجم / ٥] .

والوجه الثاني - هو الإلهام . والإلهام تنبيه النفس السكلى للنفس الجزئى على قدر صفاته وقبوله وقوته واستعداده . والإلهام أثر الوحي . فإن الوحي هو تصريح الأمر الغيبي . والإلهام هو تعريضه . والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً نبوياً . والذي عن الإلهام يسمى علماً لدنياً . والعلم اللدنى هو الذى لا واسطة فى حصوله بين النفس وبين البارى . وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف . وذلك أن العلوم كلها محصوله فى جوهر النفس السكلى الأوتى الذى هو من الجواهر المفارقة الأولية المحضة ، بالنسبة إلى العقل الأول كنسبة حواء إلى آدم عليهما السلام . وقد تبين أن العقل السكلى أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى البارى تعالى من النفس السكلى . والنفس السكلى أعز وأطف وأشرف من سائر مخلوقات . فمن إفاضة العقل السكلى يتولد الإلهام . فالوحي حلية الأنبياء ، والإلهام زينة الأولياء . فكما أن النفس دون العقل ، فالوحي دون النبى . وكذلك الإلهام دون الوحي . فهو ضعيف بنسبة الوحي ، قوى بإضافة الرؤيا . والإلهام علم الأنبياء والأولياء . فإن علم الوحي خاص بالرسول موقوف عليهم . كما كان لآدم وموسى وإبراهيم ومحمد وغيرهم من الرسل صلوات الله عليهم . وفرق بين الرسالة والنبوة . فالنبوة هى قبول النفس القدسى حقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر العقل الأول . والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستقيدين والمتابمين . وربما يتفق القبول لنفس من النفوس ، ولا يتأتى لها التبليغ لعدو من الأعذار وسبب من الأسباب . والعلم اللدنى يكون لأهل النبوة والولاية ، كما حصل للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى فقال ^(١) : (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) .

ثم قال عليه الرحمة : فإذا أراد الله بعد خيرا رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس السكلى الذى هو اللوح . فيظهر فيها أسرار بعض المكنونات . وينتقش فيها معانى تلك المكنونات . فيعبر النفس عنها كما يشاء إلى من يشاء من عباده .

(١) [١٨ الكهف / ٦٥] .

وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدني . وما لم تبلغ النفس هذه الرتبة لا يكون حكيمًا . لأن الحكمة من مواهب الله تعالى^(١) : (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ) من عباده . (وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) وهم الواصلون مرتبة العلم اللدني ، المستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعلم . فيتعلمون قليلًا ويعلمون كثيرًا ، ويتعبون يسيرًا ويستريحون طويلًا .

ثم قال عليه الرحمة : اعلم أن العلم اللدني هو سريان نور الإلهام . والإلهام يكون بعد التسوية . كما قال تعالى^(٢) : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) والتسوية تصحيح النفس والرجوع إلى فطرتها . وهذا الرجوع يكون على ثلاثة أوجه : أحدها - تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها . والثاني - الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة . فإن النبي ﷺ أشار إلى هذه الحقيقة فقال^(٣) : (من عمل بما علم ، أورثه الله علم ما لم يعلم) . والثالث - التفكير . فإن النفس ، إذا تعلمت وارتاضت بالعلم والعمل ، ثم أخذت تفكر بمعلوماتها ، بشرط التفكير ، يفتح عليه باب الغيب . كالتاجر الذي يتصرف في ماله بشرط التجارة ، يفتح عليه أبواب الربح . وإذا سلك طريق الخطأ يقع في مهالك الخسران . فالتفكير إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوى الأبواب ، وتفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه فيصير عالمًا كاملًا عاقلًا ملهمًا مؤيدًا . كما قال ﷺ^(٤) : (تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة) انتهى ملخصًا .

وفي خلال كلامه عليه الرحمة ، نجل من إشارات الصوفية وعباراتهم . ولا يأبأها العقل

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٩] . (٢) [٩١ / الشمس / ٧] .

(٣) قال في (كشف الخفاء) رقم ٢٥٤٢ ما نصه : رواه أبو نعيم عن أنس .

(٤) قال في (كشف الخفاء) رقم ١٠٠٤ ما نصه : ذكره : الفاكهاني بلفظ (ففكر ساعة)

وقال : إنه من كلام سري السقطي .

السليم ولا قواعد العلم الظاهر . لأنها في هذه المثابة بدرجة الاعتدال والتوسط . كذلك كان مشربه قدس الله سره . وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٨٣] (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ ، قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ » وهو الإسكندر الكبير المقدونيّ وسند كروجه تلقينه بذلك « قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا » أى نبأً مذكوراً معجزاً ، أنزله الله على .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا)

« إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ » أى بالقوة والرأى والتدبير والسعة فى المال والاستظهار بالعدد وعظم الصيت وكبر الشهرة . « وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا » ، أى طريقاً موصولاً إليه . والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (فَأَتْبَعَ سَبَبًا)

[٨٦] (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ، قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ نَلْعَبَ بِكَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

« فَأَتْبَعَ سَبَبًا » قرئ بقطع الهمزة وسكون التاء . وقرئ بهمزة الوصل وتشديد التاء . فقيل لها بمعنى ويتميدان لفعول واحد . وقيل : (أَتْبَعَ) بالقطع يتعدى لاثنتين . والتقدير : فأتابع سبباً سبباً آخر . أو فأتابع أمره سبباً كقوله (١) : (وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً) .

(١) [٢٨ / القصص / ٤٢] .

وقال أبو عبيدة : أتبع (بالوصل) في السير وأتبع (بالقطع) معناه اللحاق كقوله^(١):
 (فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ ثَاقِبٌ) وقال يونس : أتبع (بالقطع) للجد الحثيث في الطاب و (بالوصل)
 مجرد الانتقال . والفاء في قوله : (فَاتَّبَع) فاء الفصيحة . أى فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً
 يوصله ، لقوله « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ » أى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من
 ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض « وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ » أى ذات حمأة
 وهو الطين الأسود ، وقرئ (حامية) أى حارة . وقد تكون جامعة للوصفين و (وَجَدَ)
 يكون بمعنى (رأى) لما ذكره الراغب « وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا » أى أمة . ثم أشار تعالى
 إلى أنه مكنه منهم ، وأظهره بهم ، وحكمه فيهم ، وجعل له الخيرة في شأنهم ، بقوله :
 « قُلْنَا يَا الْقَارِئِينَ إِنَّمَا أَنْتُمْ مُعَذِّبٌ » أى بالقتل وغيره « وَإِنَّمَا أَنْتُمْ مُعَذِّبٌ حَسَنًا »
 بالعمو . ثم بين تعالى عدله وإنصافه ، ليحتذى حذوه ، بقوله سبحانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا)
 « قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ » أى بالبغي والفساد فى الأرض بالشرك والضلال والإضلال
 « فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ وَثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ » أى فى الآخرة « فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا »
 أى منكرًا لم يعهد مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ
 أَمْرِنَا يُسْرًا)

« وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ » أى فى الدارين « جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ » يقرأ بالرفع

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠] .

والإضافة. وهو مبتدأ ، أو مرفوع بالظرف أى فله جزء الخصلة الحسنى . ويقرأ بالرفع والتنوين و (الْحُسْنَى) بدل أو خبر مبتدأ محذوف . ويقرأ بالنصب والتنوين . أى : فله الحسنى جزء . فهو مصدر فى موضع الحال . أى مجزئاً بها . أو هو مصدر على المعنى . أى يجزئ بها جزء ، أو تمييز . ويقرأ بالنصب من غير تنوين . وهو مثل المنون إلا أنه حذف التنوين لا لتقاء الساكنين . أفاده أبو البقاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا)

[٩٠] (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا)

« ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا » أى طريقاً راجعاً من مغرب الشمس ، موصلاً إلى مشرقها « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا » أى من المباني والجبال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا)

« كَذَٰلِكَ » أى أمر ذى القرنين كما وصفناه فى رفعة المسكان وبسطة الملك . أو أمره فيهم ، كأمره فى أهل المغرب من الحكم المتقدم . أو صفة مصدر محذوف ل (وجد) أى وجدها تطلع وجدانا كوجدانها تقرب فى عين حمئة . أو معمول (بلغ) أى بلغ مغربها كما بلغ مطلعها ، ولا يحيط بما قاساه غير الله . أو صفة (قوم) أى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تقرب عليهم الشمس ، فى الكفر والحكم « وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا » أى علماء . نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه . لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم

وتقطعت بهم الأرض . وفي التذييل بهذا ، إشارة إلى كثرة ما لديه من العدد والعدد ، بحيث لا يحيط بها إلا علمه تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا)

[٩٣] (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَسْكَدُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا)

« ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا » أى طريقاً ثالثاً معترضا بين المشرق والمغرب « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ » قرئ بفتح السين وضمها . أى بين الجبلين اللذين سد ما بينهما « وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا » أى من وراءهما أمة من الناس « لَّا يَسْكَدُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا » لكون لغتهم غريبة مجهولة ، ولقلة فطنتهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)

[٩٥] (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)
« قَالُوا يَا أَيُّهَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ » أى فى أرضنا بالقتل والإضرار « فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا » أى جملاً نخرجه من أموالنا . وقرئ (خراجاً) وهو بمناء « عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا » أى حاجزاً يمنع خروجهم علينا « قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ » أى ما جعلنى فيه مكيناً من المال والملك ، أجل مما تريدون بذله . فلا حاجة بى إليه « فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ » أى بعمله وصناعات وآلات « أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » أى حاجزاً حصيناً . وأصل معنى الردم سد الثلمة بالحجارة ونحوها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ، حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا ،

حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)

[٩٧] (فَمَا أُسْطَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا أُسْتَظْعُوا لَهُ نَقْبًا)

[٩٨] (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ،

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)

« ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ » أى ناولوني قطعه « حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ » أى بين جانبي الجبلين « قَالَ أَنْفُخُوا » أى فى الأكوار والحديد « حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ » أى المنفوخ فيه « نَارًا » أى كالنار بالإجماء « قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا » أى نحاساً مُذَاباً ليلصق بالحديد ، ويقدم البناء به ويشتمد « فَمَا أُسْطَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ » أى يملوه بالصعود لارتفاعه وملاسته « وَمَا أُسْتَظْعُوا لَهُ نَقْبًا » لثخنه وصلابته « قَالَ هَذَا » أى السد « رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي » على القاطنين عنده . لأنهم من شر من سد عليهم به ، ورحمة على غيرهم ، لسد الطريق عليهم « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي » بدحره وخرابه « جَعَلَهُ دَكَّاءَ » بالمد أى أرضاً مستوية ، وقرئ (دَكًّا) أى مدكوكاً مسوياً بالأرض . « وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا » أى كأننا لا محالة . وهذا آخر حكاية قول ذى القرنين .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أنه ليس فى القرآن شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هى الآيات والعبر والأحكام والآداب تجلت فى سياق الوقائع . ولذا يجب صرف العناية إلى وجوه تلك الفوائد والثمرات ، وما يستنبط من تلك الآيات . وقد أشار نبأ ذى القرنين الإسكندر إلى فوائد شتى . نذكر ما فتح علينا منها ، ونسكل ما لم نحط به علماً إلى العليم الخبير .

فَمَنْ فَوَّائِدِهِمَا : الاعتبار برفع الله بمض الناس درجات على بعض . ورزقه من يشاء بغير حساب ملكاً ومالاً . لئله من خفى الحكم وباهر القدرة . فلا إله سواه .

ومنها : الإشارة إلى القيام بالأسباب ، والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل . وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر فإن ماقص عن الإسكندر من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمس ، ومطلعها وشمالها وعدم فتوره ووجدانه اللذة في مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار ، وركوب الأوعار والبحار ، ثم إحرازه ذلك الفخار ، الذي لايشق له غبار ، أكبر عبرة لأولى الأبصار .

ومنها : تنشيط الهمم لرفع العوائق . وأنه ما تيسرت الأسباب ، فلا ينبغي أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز القفر ، عذراً في المحول والرضاء بالدون . بل ينبغي أن ينشط ويمثل في مرارته ، حلاوة عقباه من الراحة والهناء . كما قضى الإسكندر عمره ولم يذق إلا حلاوة الظفر ولذة الانتصار : . إذ لم يكن من الذين تقعدهم المصاعب عن نيل ما ينتغون .

ومنها : وجوب المبادرة لمعالى الأمور من الحداثة . إذ من الخطأ التسويف فيه إلى الاكتهال . فإن الإسكندر لما تبوأ ملك أبيه كان في حدود العشرين من عمره . وأتى ما أتى وهو في ريمان الشباب وقوة الفتاء . فهاجم أعظم ملوك عصره وأكبر جيوشهم . كأنه القضاء المبرم . ولم يقف في وجهه عدد ولا عدد . وخاض غمرات الردى غير هيب ولا وجل . وأضاف كل العالم الشرقى إلى المملكة اليونانية وهو شاب . وقضى وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ، كما دونه محققو المؤرخين .

ومنها : أن من قدر على أعدائه وتمكن منهم ، فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بمصا الإذلال ، وتجريمهم غصص الاستعباد والنسكال . بل يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته . فإن ما حكى عن الإسكندر من قوله ^(١) (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ) إلى آخره ، نهاية في المدل وغاية الإنصاف .

(١) [١٨ / الكهف / ٨٧] .

ومنها : أن على الملك ، إذا اشتكى إليه جور مجاورين ، أن يبذل وسعه في الراحة والأمن ، دفاعاً عن الوطن العزيز ، وصيانة للحرية والتمدن ، من مخالب التوحش والحراب ، قياماً بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العدل بين العالمين . كما لبى الإسكندر دعوة الشاكين في بناء السد . وقد أطبق المؤرخون على أنه بنى عدة حصون وأسوار ، لرد غارات البرابرة ، وصد هجماتهم .

ومنها : أن على الملك التعفف عن أموال رعيته ، والزهد في أخذ أجرة ، في مقابلة عمل يأتيه ، ما أغناه الله عنه ، ففي ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بحبته . كما تأبى الإسكندر تفضلاً وتكراً .

ومنها : التحدث بنعمة الله تعالى إذا اقتضاه المقام . كقول الإسكندر في مقام تفهفه عن أموالهم ، والشفقة عليهم ^(١) (مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) كقول سليمان ^(٢) (فَمَا آتَانِي مِنَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ) وقد قيل : إن دخل الإسكندر من البلاد التي فتحها كان نحو ستين مليون ليرة إنكليزية .

ومنها : تدعيم الأسوار والحصون في الثغور ، وتقويتها بذوب الرصاص وبوضع صفايح النحاس ، خلال الصخور الصم ، صدقاً في العمل ونصحاً فيه . لينتفع به على تطاول الأجيال . فإن البناء غير الرصين لا ثمرة فيه .

ومنها : مشاطرة الملك العيال في الأعمال ومشارفتهم بنفسه إذا اقتضى الحال ، تنشيطاً لهمتهم وتجرئة لهم وترويحاً لقلوبهم . وقد كان الإسكندر يقاسم الرجال الأتباع ، ويدير العمل بنفسه ، كما بينه الذكر الحكيم في قوله ^(٣) (ءَاتُونِي أَفْرَغَ عَلَيْهِ قِطْرًا) .

ومنها : تعريف الغير ثمرة العمل المهم ، ليعرفوا قدره فيظهروا شكره . ولذا قال ^(٣) (هَذَا رَجْمَةٌ مِّن رَّبِّي) .

(١) [١٨ / الكهف / ٩٥] . (٢) [٢٧ / النمل / ٣٦] . (٣) [١٨ / الكهف / ٩٨] .

ومنها : الإعلام بالدور الأخرى ، وانقضاء هذا الطور الأولى ، لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباق والنعم السرمدي . ولذا قال (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَّبِّي) .

ومنها : الاعتبار بتخايد جميل الثناء ، وجايل الآثار . فإن من أنعم النظر فيما قص عنه في هذه الآيات الكريمة ، يتضح له جلياً حسن سجاياه وسمو مزاياه . من الشجاعة وعلو الهمة والعفة والعدل . ودأبه على توطيد الأمن وإثابته المحسنين وتأديبه للظالمين . والإحسان إلى النوع البشري ، لاسيما في زمان كان فيه أكثر عوائد وأخلاق الأمم المتمدنة وغير المتمدنة ، وحشية فاسدة .

ومنها : الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمماً متباينة . كما كان يرى إليه سعى الإسكندر . فإنه دأب على توحيد الكلمة بين الشعوب ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بصلات الحب والعوائد . وقد حكى أنه كان يجيش من كل أمة استولى عليها ، جيشاً عرمرماً ، يضيفه إلى جيشه المقدوني اليوناني . ويأمر رجاله أن يتزوجوا من بناتهم ، لتوثيق عرى المحبة والارتباط ، وإزالة البغض والشحناء .

ومنها : الاعتبار بما يبلغه الإنسان ، وما فيه من بليغ الاستعداد . يقضى على المرء أن يعيش أولاً طفلاً مرضعاً . لا يعلم ما حوله ولا يطلب غير ما تحتاج إليه طبيعته الضعيفة ، قياماً بما تقتضيه أسباب الحياة ، وهو ملق إذ ذاك لا إرادة له . وعرضة لأسقام تذيبه الآلام ، وقد تجرعه كأس الحمام قبل أن يرى ويدرك شيئاً من هذا النظام . فإذا استظهرت فيه عوامل الحياة على دواعي المات ، وسرت بجسمه قوى الشبيبة ، وصرف ما أنعم الله عليه ، إلى ما خلق لأجله ، ترعرع إنساناً عظيماً ظافراً بمنتهى أمله .

التنبيه الثاني - في ذى القرنين . اتفق المحققون على أن اسمه الإسكندر بن فيليس ، وقال ابن القيم في (إغاثة اللهفان) في الكلام على الفلاسفة : ومن ملوكهم الإسكندر المقدوني وهو ابن فيليس وليس بالإسكندر ذى القرنين الذي قص الله تعالى نبأه في القرآن . بل بينهما

قرون كثيرة وبينهما في الدين أعظم تباين . فذو القربين كان رجلاً صالحاً موحداً لله تعالى يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر . وكان يغزو عبّاد الأصنام وبلغ مشارق الأرض ومغاربها . وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج . وأما هذا المقدونيّ ، فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته . وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمئة سنة . والنصارى تؤرخ له . وكان أرسطاطاليس وزيره . وكان مشركاً يعبد الأصنام . انتهى كلامه .

وفيه نظر . فإن المرجع في ذلك هم أئمة التاريخ وقد أطبقوا على أنه الإسكندر الأكبر ابن فيليس باني الإسكندرية بتسعمائة وأربع وخمسين سنة قبل الهجرة ، وثلاثمائة واثنين وثلاثين سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام . وقد أصبح ذلك من الأوليات عند علماء الجغرافيا . وأما دعوى أنه كان مشركاً يعبد الأصنام ، فقير مسلم ، وإن كان قومه وثنيين ، لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس . وقد جاء في ترجمته - كما في طبقات الأطباء وغيرها - أنه كان لا يعظم الأصنام التي كانت تعبد في ذلك الوقت وأنه بسبب ذلك نسب إلى الكفر وأريد السعاية به إلى الملك . فلما أحس بذلك شخص عن أئمتنا . لأنه كره أن يتقلد أهلها بمثل ما ابتلوا به سقراطيس معلم أفلاطون . فإنه كان من عبادهم ومتألهيهم . وجاهرهم بمخالفتهم في عبادة الأصنام . وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها . فتوّرروا عليه العامة واضطروا الملك إلى قتله . فأودعه السجن ليكفهم عنه . ثم لم يرض المشركون إلا بقتله . فسقاه السم خوفاً من شرهم ، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم . كما في (طبقات الأطباء وتراجم الفلاسفة) فالوثنية ، وإن كانت دين اليونانيين واعتقاد شعبيهم ، إلا أنه لا ينافي أن يكون الملك وخاصته على اعتقاد آخر يجاهرون به أو يكتفون به . كالنجاشي ملك الحبشة . فإنه جاهر بالإيمان بالنبي ﷺ . وشعبه وأهل مملكته كلهم نصارى . وهكذا كان الإسكندر وأستاذه والحكام قبله . فإن المعنى في تراجمهم يرى أنهم على توحيد وإيمان بالمعاد . قال القاضي صاعد : كان فيثاغورس - أستاذ

سقراط - يقول ببقاء النفس وكونها، فيما بعد ، في ثواب أو عقاب. على رأى الحكماء الإلهيين .
فتأمل قوله (على رأى الحكماء الإلهيين) يتحقق ما ذكرناه .

وأما قول الفخر الرازى : (إن فى كون الإسكندر ذا القرنين إشكالاً قوياً . وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه ، فتمتدح الله إياه بوجوب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق . وذلك مما لا سبيل إليه) فلا يخفى دفع هذا اللزوم . فإن من كان تابماً لمذهب فمدح لأمر ما يوجب مدحه لأجله ، فلا يلزم أن يكون المدح لأجل مذهبه ومتبوعه . إذ قد يقوم فيه من الخلال والمزايا ما لا يوجد فى متبوعه . وقد يبدو له من الأنظار الصحيحة ما لا يكون فى مذهبه الذى نشأ عليه مقلداً . أفلا يمكن أن يكون حرراً فى فكره ينبذ التقليد الأعمى ويعتق الحق . ومن آتاه الله من الملك ما آتاه ، أفيمتنع أن يؤتية من تنور الفكر وحرية الضمير وتفوذ البصيرة ما يخالف به متبوعه ؟ هذا على فرض أن متبوعه مذموم . وقد عرفت أن متبوعه (أعنى أرسطاطاليس) ، كان موحداً . وهو معروف فى التاريخ لاسترة فيه . على أنه لو استازمت الآية مدح مذهب أستاذه لكان ذلك فى الأصول التى هى المقصودة بالذات ، وكفى بها كمالاً . وللرازى فرص يعقلم بها التنويه بالحكماء والتعريف لمذاهبهم ، وهذه منها . وإن صبغها - ساعه الله - فى هذا الأسلوب . عرف ذلك من عرف .

التنبية الثالث : اختلف فى سبب تلقيبه بذى القرنين . فقيل لأنه طاف قرنى الدنيا . يعنى جانبها شرقياً وغربياً . أو لأنه كان له قرنان أى صغيرتان . أو لأنه ملك الروم وفارس . قال الرخشمى : ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته ، كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه .

أقول : هذا اللقب من الكناية عن كل ذى قوة وبأس وسلطان . لأن ذا القرون من المواشى أقواها وأشدها . والكناية بالقرن عن القوة والسلطان معروفة عند اليهود ،

الذين هم السائلون . وقد وقع في توراتهم في نبوة دانيال عليه السلام قوله عن الملك : (فإذا أنا بكبش واقف عند النهر . وله قرنان) ثم قوله : (وبينما كنت متأملاً إذا بتيس معز قد أقبل من المغرب على وجه الأرض كلها . وللتيس قرن عجيب المنظر بين عينيه) قالوا : القرن هنا رمز إلى القوة والسلطان . والتيس رمز إلى مملكة اليونان . وقرنه رمز إلى أول ملك على هذه المملكة وهو الإسكندر الكبير . وما أشار إليه من سرعة مسير هذا التيس إيحاء إلى كثرة ما دهم البلاد به من الغارات المتواصلة . وقوله : (خرج من المغرب) إشارة إلى خروجه من مكدونية ، التي هي إلى غرب فارس ، وذلك حين تقدم على جيوش داريوس وكسره . وتعقبه إلى داخل مملكته . والقصد أن هذا اللقب (ذو القرنين) شهير وليس من أوضاع العرب خاصة ، كما زعمه بعضهم . بل هو معروف عند العبرانيين أيضاً . وقد يظهر أنه من رموزهم الخاصة التي سرت إلى العرب ، وأقرتهم عليها .

التنبية الرابع - قال الرازيّ : اختلفوا في ذى القرنين . هل كان من الأنبياء أم لا ؟ منهم من قال : إنه كان نبياً . واحتجوا عليه بوجوه :

الأول - قوله : (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ) والأولى حملة على التمكين في الدين . والتمكين الكامل في الدين هو النبوة .

الثاني - قوله : (وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) ومن جملة الأشياء النبوة . ففقتضى العموم في قوله : (وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) هو أنه تعالى آتاه من النبوة سبباً .
الثالث - قوله تعالى : (قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمْأَ أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) والذي يتسكّم الله معه لا بد وأن يكون نبياً .

ومنهم من قال : إنه كان عبداً صالحاً وما كان نبياً . انتهى .
ثم قال الرازيّ بعدد : يدلّ قوله تعالى (قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ) على أنه تعالى تسكّم معه

من غير واسطة . وذلك يدل على أنه كان نبياً . وحملُ هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على أسنة بعض الأنبياء - فهو عدول عن الظاهر . انتهى .

ولا يخفى ضعف الاستدلال بهذه الأدلة على نبوته . لأن مقام إثباتها يحتاج إلى تفصيل وتخصيص . وأما تعمق الجري وراء العمومات ، لاستفادة مثل ذلك ، فغير مقنع .

وأما قوله تعالى : (قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْآنِ) فقد معنا أنه كناية عن تمكينه تعالى له منهم . لا أنه قول مشافهة . وإلا لو كان ذلك لسكان مخيراً منه تعالى وملقناً ما يفعل بهم . فأنى يسوغ له نقضه باجتهاد آخر . ولا يقال إن الأصل في الإطلاق الحقيقة . لأننا نقول به ، ما لم يمنع منه مانع ، من نحو ما ذكرناه . وللتنزيل الكريم أسلوب خاص ، عرفه من أنعم النظر في بديع بيانه . نعم . لو كان مراد القائل بنبوته أنه من المهملين - ذهاباً في النبوة إلى المعنى الأعم من الإيحاء بشرع ، ومن الإلهام ، لسكان قريباً . فتكون نبوته من القسم الثاني وهو الإلهام . ويطلق الصوفية على مثله الوارد . وجاء في الحديث تسمية صاحبه (١) محدثاً . وإطلاق النبوة عليه ، وإن كان محظوراً في الإسلام ، إلا أنه كان معروفاً قبله في العباد الأخيار . التنبيه الخامس - حكى في قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْآنِ) قولان في أن السائلين هم اليهود أو غيرهم . ورجح الأول من وجهين :

أولها - أن للإسكندر عند اليهود شأناً وقدرأ . وذلك لما حكى أنه لما فتح غزة ودنا من بيت المقدس ، خرج إليه رئيس أعبازها وقدم إليه الطاعة . فدخلها إسكندر وسمع نبوة التوراة فسراً وأحسن إلى اليهود . وتعقب بعض المؤرخين هذه الرواية بأنها غير مأثورة في كتب اليونان ، ولم يروها أحد من مؤرخيهم .

(١) يشير إلى الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٤ - باب حدثنا أبو اليمان ، عن النبي ﷺ أنه قال : إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون ، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم ، فإنه عمر بن الخطاب .

ثانيهما - أن عنوان (ذو القرنين) من رموز الإسرائيليين كما قدمناه عنهم .
التنبيه السادس - قالوا: المراد (العين الحمئة) البحر المحيط. وتسميته عينا لكونه بالنسبة
لعظم قدرته تعالى ، كقطرة . وإن عظم عندنا . قالوا : رأى الشمس في مظهره تقرب
في البحر . وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تقرب فيه . وهي لا تفارق
فلكها .

ولالإمام ابن حزم عليه الرحمة - رأى آخر في الآية. ذكره في كتاب (الملل) في بحث
كروية الأرض قال : ذو القرنين هو كان في العين الحمئة الحامية كما تقول (رأيتك في البحر)
تريد أنك إذا رأيته كفت أنت في البحر . وبرهان هذا أن مغرب الشمس لا يجهل مقدار
عظيم مساحته إلا جاهل . ومقدار ما بين أول مغربها الشقوى إذا كانت من آخر رأس الجدى
إلى آخر مغربها الصيفي إذا كانت من رأس السرطان - مرئى مشاهد. ومقداره ثمان وأربعون
درجة من الفلك . وهو يوازي من الأرض كلها بالبرهان الهندسي أقل من مقدار السدس .
يكون من الأميال نحو ثلاثة آلاف ميل وتيف . وهذه المساحة لا يقع عليها في اللغة اسم
(عين) البتة . لا سيما أن تكون (عينا حمئة) حامية . وباللغة العربية خوطينا . فلما تيقنا أنها
(عين) بإخبار الله عز وجل ، الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
علمنا يقيناً أن ذا القرنين انتهى به السير في الجهة التي مشى فيها من المغارب إلى العين المذكورة .
وانقطع له إمكان المشى بعدها لاعتراض البحار له هنالك . وقد علمنا بالضرورة أن ذا القرنين
وغيره من الناس ، ليس يشغل من الأرض إلا مقدار مساحة جسمه فقط . قائماً ، أو قاعداً
أو مضطجماً . ومن هذه صفتة ، فلا يجوز أن يحيط بصره من الأرض ، بمقدار مكان المغارب
كلها ، لو كان مغيبها في عين من الأرض . كما يظن أهل الجهل . ولا بد من أن يلقى خط بصره
من حدة الأرض ، ومن نشر من أنشازها ، ما يمنع الخط من التمداد ، إلا أن يقول قائل :
إن تلك العين هي البحر . فلا يجوز أن يسمى البحر في اللغة (عينا حمئة) ولا حامية . وقد أخبر

الله عز وجل أن الشمس تسبح في الفلك . وأنها إنما هي من الفلك سراج . وقول الله تعالى هو الصدق الذي لا يتناقض . فلو غابت في عين من الأرض ، كما يظن أهل الجهل ، أوفى البحر ، لكانت الشمس قد زالت عن السماء وخرجت عن الفلك ، وهذا هو الباطل . فصح يقيناً ، بلا شك ، أن ذا القرنين كان هو في العين الحثمة والحامية ، حين انتهى إلى آخر البر في المغارب . لا سيما مع ما قام البرهان عليه ، من أن جرم الشمس أكبر من جرم الأرض . وبرهان آخر قاطع وهو قوله تعالى : (وَجَدَهَا تَقْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا) فصح ضرورة أنه وجد القوم عند العين لا عند الشمس . انتهى كلام ابن حزم .

التنبية السابع - قال الرازي : الأظهر أن موضع السدين في ناحية الشمال . وقيل : جبلان بين أرمينية وأذربيجان . وقيل : هذا المسكان في منقطع أرض الترك . وحكى محمد بن جرير الطبري في (تاريخه) أن صاحب أذربيجان ، أيام فتحها ، وجه إنسانا إليه من ناحية الخزر . فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع ، وراء خندق عميق وثيق منيع .

وذكر ابن خرداد في كتاب (المسالك والممالك) أن الواثق بالله رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم ، فبعث بعض الخدم إليه ليأينوه . فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه . فوصفوا أنه بقاء من لبن من حديد ، مشدود بالنحاس الذباب ، وعليه باب مقفل . ثم إن ذلك الإنسان ، لما حاول الرجوع ، أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند .

قال أبو الريحان : مقتضى هذا أن موضعه في الربع الشمالي الغربي من العمورة . والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى كلام الرازي .

وقال الإمام ابن حزم في (الملل والنحل) جزء أول صحيفة (١٢٠) في تفنيد دعوى اليهود أن الجنة التي أهبط منها آدم في الأرض ، ما مثاله . فإن قيل : ذكر في القرآن سد يأجوج ومأجوج . ولا يدرى مكانه ولا مكانهم . قلنا : مكانه معروف في أقصى الشمال

في آخر المعمورة منه . وقد ذكر أمر يأجوج ومأجوج في كتب اليهود التي يؤمنون بها ويؤمن بها النصارى . وقد ذكر يأجوج ومأجوج والسدّ أرسطاطاليس في كتابه في (الحيوان) عند كلامه على الفرائيق . وقد ذكر سد يأجوج ومأجوج بطليموس في كتابه المسمى (جغرافيا) وذكر طول بلادهم وعرضها . وقد بعث إليه الواثق أمير المؤمنين سلام الترجمان في جماعة معه حتى وقفوا عليه . ذكر ذلك أحمد بن الطيّب السرخسي وغيره . وقد ذكره قدامة بن جعفر والناس . فهبات خبر من خبر . وحتى لوخفي مكان يأجوج ومأجوج والسد ، فلم يعرف في شيء من المعمور مكانه ، لما ضر ذلك خبرنا شيئاً . لأنه كان يكون مكانه حينئذ خلف خط الاستواء حيث يكون ميل الشمس ورجوعها ، وبعدها كما هو في الجهة الشمالية . بحيث تكون الآفاق كبعض آفاقنا المسكونة ، والهواء كهواء بعض البلاد التي يوجد فيها النبات والتناسل . واعلموا أن كل ما كان في عنصر الإمكان ، فأدخله مدخل في عنصر الامتناع بلا برهان - فهو كاذب مبطل جاهل ، أو مجاهر . لاسيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صدق خبره . وإنما الشأن في المحال الممتنع الذي تكذبه الحواس والعيان أو بديهية العقل . فمن جاء بهذا فإنما جاء ببرهان قاطع على أنه كذاب مفر . ونعوذ بالله من البلاء . انتهى كلام ابن حزم .

وقال بعض المحققين : اعلم أنه كثيراً ما يحدث في الثورات البركانية أن تنخسف بعض البلاد أو ترتفع بعض الأراضي حتى تصير كالجبال . وهذا أمر مشاهد حتى في زمننا هذا . فإذا سلم أن سدّ ذي القرنين المذكور في هذه الآية غير موجود الآن ، فربما كان ذلك ناشئاً من ثورة بركانية خسفت به وأزالت آثاره . ولا يوجد في القرآن ما يدل على بقائه إلى يوم القيامة . أما قوله تعالى : (هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَمَلُهُ وَاذْكَرًا) فمعناه أن هذا السد رحمة من الله بالأمة القريبة منه . لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم ، ولكن يجب عليهم أن يفهموا أن مع متانته وصلابته لا يمكن أن يقاوم مشيئة الله القوى القدير ، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله . ولكن إذا قامت القيامة وأراد الله فناء هذا العالم ، فلا هذا

السدّ ولا غيره من الجبال الراسيات يمكنها أن تقف عثرة ، لحظة واحدة أمام قدرة الله . بل يدركها جماء دكاً في لمح البصر . فرادى القرنين بهذا القول تنبيه تلك الأمم على عدم الاعتزاز بمناعة هذا السد ، أو الإعجاب والغرور بقوتهم . فإنها لاشيء يذكر بجانب قوة الله . فلا يصح أن يستنتج من ذلك أن هذا السدّ يبقى إلى يوم القيامة ، بل صريحه أنه إذا قامت القيامة في أى وقت كان ، وكان هذا السدّ موجوداً ، دكه الله دكا . وأما إذا تأخرت فيجوز أن يدك قبلها بأسباب أخرى . كالزلازل إذا قدم عهده . وكالثورات البركانية كما قلنا . وليس في الآية ما ينافي ذلك . وأما قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) فالمراد منه خروجهم بكثرة وانتشارهم في الأرض ، كما يخرج الشيء المحبوس أو المضغوط إذا انفجر . واستعمال لفظ (الفتح) مجازاً شائع في اللغة . ومنه قولك (فتحو البلاد) وقوله تعالى (١) (فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) فليس للأشياء أبواب . وكذلك يأجوج ومأجوج لأبواب لهم . بل هم من كل حذب ينسلون . والغالب أن المراد بخروجهم هذا ، خروج المغول التتار ، وهم من نسل يأجوج ومأجوج وهو الغزو الذي حصل منهم للأمم في القرن السابع الهجرى . وناهيك بما فعلوه إذ ذاك في الأرض ، بمد أن انتشروا فيها ، من الإفساد والنهب والقتل والسبي . والراجح أن السد كان موجوداً بإقليم داغستان التابع الآن لروسيا ، بين مدينتى دربند وخوزار . فإنه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم ، يسمى عنسد كثير من الأمم القديمة والحديثة بـ (السد) وبه موضع يسمى (باب الحديد) وهو أثر سدّ حديدى قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب (بجبل قاف) وقد كانوا يقولون إن فيه السد كغيرهم من الأمم . ويظنون أنه في نهاية الأرض . وذلك بحسب ما عرفوه منها . ومن ورائه قبيلتا يأجوج ومأجوج . انتهى .

وجاء في (صفوة الاعتبار) أن السور الذى وصلوا إليه أيام الواثق من بنى العباس ، هو

(١) [٦ / الأنعام / ٤٤] .

سور الصين الذي هو إحدى عجائب مملكة الصين . فإن طوله نحو ألف ومائتين وخمسين ميلاً ، وسنمكة من الأسفل نحو خمسة وعشرين قدماً ، ومن أعلاه نحو خمسة عشر قدماً . وارتفاعه ما بين خمسة عشر إلى عشرين قدماً . وفي أما كن منه حصون يبلغ ارتفاع بعضها إليه أربعين قدماً . بنى لرد الهجمات على المملكة الصينية الأصلية ، من المغول والقبائل الشمالية . والسور الآن خراب في جهات كثيرة . فإن كان هو المراد بالسد في الآية ، لزم حمل الصفات المذكورة فيه ، من كونه من زبر الحديد ، ومفرغاً عليه النحاس ، على بقاع من ذلك السور . والصدفان حينئذ طرفان من ذلك السور . كما تؤوّل صفات يأجوج ومأجوج ، إلى ما يصح إطلاقها به على التتر والمنشورية . ويكون وعد الله الذي يدك فيه السد هو قرب الساعة . ولاشك أنها قربت بإعلام الشارع . وحينئذ يكون الفساد الموعود به في النصوص من أولئك القوم ، هو ما وقع من التتر من الفساد في الممالك . كما في عهد جنكزخان ، وما عناه هو وأصحابه في الدنيا والله أعلم . انتهى .

وجاء في الجغرافية العمومية ، في المقالة السابعة والأربعين في تخطيط آسيا ، بلاد القوقاسيين أي أهالي كوه قاف ، أي جبل قاف : إن في تلك الأقطار يمتد هذا الجبل كالسور العظيم . وفيه مجازان يسميان عند القدماء الأبواب القوقازية والأبواب الألبانية . فالجهاز الأول وهو الأبواب القوقازية هو الذي كان يخشى منه هجوم المتبربرين على كل من دولة الرومانيين والمعجم . ثم إن الحصن الذي كان يسد هذا الجواز يسمى بأسماء مختلفة عند القدماء . وأما الأبواب الألبانية فأشهر الآراء فيها أنها مجاز دربند . على امتداد بحر الخزر . ثم قال : وهناك حكاية مشهورة بين أهالي (كوه قاف) تقتضى أن هذا الجبل كان مسدوداً بسد عظيم يمنع غارة المتبربرين وهذا السد العظيم تارة يعزى لإسكندر ، وتارة لأنوشروان ويستدلون على ذلك بأثار موجودة إلى الآن ، ترى لمن يروم ذلك . التنبيه الثامن - قال أبو البقاء : يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، لم ينصرفا للعجمة

والتعريف . ويجوز همزها وترك همزها . وقيل : هاء ربّيان . (فأجوج) يفعل مثل ربوع .
(وأجوج) مفعول مثل معقول . وكلاهما من (أجّ الظلم) إذا أسرع . أو من (أجت النار)
إذا التهمت . ولم ينصرفا للتعريف والتأنيث - أي للقبيلة كمجوس . فالكلمتان من أصل
واحد في الاشتقاق . وعلى العجمة ، لا يتأني تصريفه . ولا يمتبر وزنه إلا بتقدير كونه عربياً ،
كافي (تذكرة أبي علي) .

قال الرازي : واختلفوا في أيهما من أي الأقسام ؟ فقيل : إنهما من الترك . وقيل :
يأجوج من الترك وأجوج من الجليل والديلم . ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر
الجثة ، انتهى .

وقال بعض المحققين : كان يوجد من وراء جبل من جبال القوقاز ، المعروف عند العرب
ب(جبل قاف ، في إقليم داغستان ، قبيلتان . تسمى إحداهما (آقوق) ، والثانية (ماقوق)
فعرّبهما العرب ب(أجوج وأجوج) وهما معروفان عند كثير من الأمم وورد ذكرهما في
كتب أهل الكتاب . ومنهما تناسل كثير من أمم الشمال والشرق في روسيا وآسيا .

التنبية التاسع - توسع من لم يشترط الصحة ولا الحسن في مصنفاته من الرواة ، في
تخرّيج ما روى عن أجوج وأجوج . وكله إما من الإسرائيليات أو المنكرات أو الموضوعات .
ومن ذلك حديث (إن أجوج أمة . وأجوج أمة . كل أمة أربع مائة ألف أمة . لا يموت الرجل
منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر بين يديه من صلبه . كل قد حمل السلاح الخ) رواه ابن عدي في
(الضعفاء) عن حذيفة مرفوعاً . وقال : موضوع منكر ، ومحمد بن إسحاق الكاشي كذاب
يضع ، وقد أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه .

وقال الحافظ ابن جرير ههنا ، عن وهب بن منبه ، أثرًا طويلًا عجيبًا ، في سير ذي القرنين
وبنائه السد وكيفية ما جرى له . وفيه طول وغرابة ونسكاراة في أشكالهم وصفاتهم وطولهم
وقصر بعضهم وأذانهم .

وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك ، أحاديث غريبة لا تصح أسانيدھا . انتهى .
فجزى الله البخاري أحسن الجزاء ، على نبذ تلك الروايات ، واشتراطه الصحة في
الروايات ، فقد جنت الآثار المنكرة على الأمة أنكر الآثار . ومن طالع مقدمة صحيح مسلم
صدق قوله : (أن راوی الضعاف غاش آثم مضلّ) وبالله المستعان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا)
« وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا »
أى نفخ فيه للبعث في النشأة الثانية . فجمعناهم للجزاء والحساب جمعاً عجيباً
لا يكتنه كنهه .

قال إمام : النفخ في الصور تمثيل لبعث الله الناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في
بوق ، فإذا هم قيام ينظرون . وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ في الصور ، وليس علينا أن
نعلم ما هي حقيقة ذلك الصور . والبحث وراء هذا عبث لا يسوغ للمسلم . أى لأنه من عالم
الغيب ، أى الأمور الغيبية عنا ، التي لم نكلف بالبحث عن حقائقها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا)

« وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ » أى أظهرناها وأبرزناها « يَوْمَئِذٍ » أى يوم إذ جمعنا الخلائق كافة
« لِلْكَافِرِينَ » أى منهم . حيث جعلناهم بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً
« عَرَضًا » أى فظيماً هائلاً لا يقادر قدره . قال أبو السعود : وتخصيص العرض بهم ، مع
أنها بجرأى من أهل الجمع قاطبة ، لأن ذلك لأجلهم خاصة . وفي عرضها وإراءتهم ما فيها

من العذاب والنكال ، قبل دخولها ، مزيد غضب عليهم ونكاية . لكونه أبلغ في تعجيل
الهم والحزن . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)

« الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا » تمثيل
لتعاميهم عن الآيات الدالة على توحيده ، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها . ولتصاميمهم
عن الحق واتباع الهدى . وقوله تعالى : (وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) أبلغ من (وكانوا صمًا)
لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به . وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم
للسمع . أفاده الزمخشري . وفي توصيفهم بالجلتين نكتة أخرى ، بها تعلم أنه لا يستغنى بالثانية
عن الأولى ، كما زعم ، وذلك - كما حققه الشهاب - إن قوله تعالى : (لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)
لما أفاد أنهم كفأقدي حاسة السمع ، ومن هو كذلك إنما يعرف الذكر بإشارة أو كتابة
أو نحوها ، مما يدرك بالنظر ، وذكر أن أعينهم محجوبة عن النظر فيما يدل عليه أيضاً . فهم
لا سبيل لهم إلى معرفة ذكره أصلاً . وهذا من البلاغة بمكان .

قال أبو السعود : والموصول يعنى (الذين) نعت للكافرين ، أو بدل أو بيان جرى به
لذمهم بما في حيز الصلة ، وللإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم . فإن ذلك
إنما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم في الدنيا من الآيات ، وإعراضهم عنها ، مع
كونها أسباباً منجية عما ابتلوا به في الآخرة .

[١٠٢] (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ،

إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا)

« أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ » هذا رجوع إلى

طليمة السورة في قوله تعالى^(١): (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) فهو من باب رد العجز على الصدر المقرر في البديع ، جرىء بالاستفهام الإنكاري ، إنكاراً لما وقع منهم وتوبيخاً لهم . ومفعول (حسب) الثاني محذوف . أى أفسحوا اتخذهم نافعاً لهم؟^(٢) (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) كما قالوا^(٣) (سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِن دُونِهِمْ) « إِنَّا أَعْتَدْنَا » أى هيأنا « جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا » أى شيئاً يتمتعون به عند ورودهم . و(النزل) ما يقام للنزول أى الضيف . وفيه استعارة تهكمية . إذ جعل ما يعذبون به في جهنم كالزقوم والغسلين ، ضيافة لهم .

وقال أبو السعود : وفيه تحطئة لهم في حسابهم ، وتهكم بهم . حيث كان اتخذهم إياهم أولياء ، من قبيل إعتاد العتاد ، وإعداد الزاد ، ليوم المعاد . فكانه قيل : إنا أعتدنا لهم ، مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذخر ، جهنم عدة . وفي إيراد (النزل) إيحاء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أعوزج له . أى لأن الضيف لا يستقر في منزل الضيافة . وينتقل إلى ما هو إهناء له في دار إقامته . فكان تنبيهاً على أنهم سيدوقون ما هو أشد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا)

[١٠٤] (الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيْدُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

[١٠٥] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ

فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

[١٠٦] (ذَٰلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا)

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيْدُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»

(١) [١٨ / الكهف / ٤] . (٢) [١٩ / مريم / ٨٢] . (٣) [٣٤ / سبأ / ٤١] .

أى ضاع وبطل « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ » أى التى جاءت بالعمل بها رسلهم « وَوَلَّيْنَاهُمُ الْغِيَابَ وَالْحِسَابَ وَالْجَزَاءَ » فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » لكفرهم المذكور « فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا » أى فنزدرهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً ، لأن مداره الأعمال الصالحة ، وقد حبطت بالمرّة « ذَٰلِكَ » أى الأمر ذلك . وقوله : « جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ » جملة مبينة له ، أو (ذلك) مبتدأ ، والجملة خبره ، والمائد محذوف . أى جزاؤهم به . أو (جزاؤهم) خبر و (جهنم) عطف بيان له « بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا » أى مهزوءاً بهما . وذلك موجب لشدة المقت والغضب والنفال . ثم بين .المقابلهم من الحسنى بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا)

[١٠٨] (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » .

أى تحوّلًا ، لبلوغهم السكّال فى نعيمها . فلا شوق لهم فيما وراءها . وفيه تنبيه على شدة رغبتهم فيها ، وحبهم لها . مع أنه قد يتوهم ، فيمن هو مقيم فى مكان دائماً ، أنه يسأمه أو يمله . فأخبر أنهم ، مع هذا الدوام والخلود السرمديّ ، لا يختارون عن مقامهم متحوّلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ

كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي » أى لكتابتها « لَنَفِدَ الْبَحْرُ » أى مع

كثرتة ولم يبق منه شيء « قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي » أي لكونها غير متناهية ، فلا تنفذ نفاذ المتناهي .

قال أبو السعود : وفي إضافة (الكلمات) إلى اسم الرب ، المضاف إلى ضميره ﷺ في الموضعين ، من تفضيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى . وإظهار (البحر) و(الكلمات) في موضع الإضمار ، لزيادة التقرير . وقوله تعالى : « وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » أي بمثل البحر عوناً وزيادة ، لنفذ أيضاً .

قال أبو السعود : كلام من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقن ، جيء به لتحقيق مضمونه ، وتصديق مدلوله ، مع زيادة مبالغة وتأكيد ، وهذا كقوله تعالى (٨) : « وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .
تنبيه .

دلت الآية على أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء وكما شاء . وأن كلماته لانهاية لها . وقد قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره من الأئمة : لم يزل الله متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء . وهو مذهب سلف الأمة ، وأئمة السنة ، وكثير من أهل الكلام ، كالمشامية والكرامية وأصحاب أبي معاذ . وطوائف غير هؤلاء يقولون : إن الكلام صفة ذات وفعل ، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته . وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم . فكل حي وصف بالكلام كاللائكة والبشر والجن وغيرهم ، فكلامهم لا بد أن يقوم بأنفسهم ، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم . والكلام صفة كمال لا صفة نقص . ومن تكلم بمشيئة كل من لا يتكلم بمشيئة . فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق ؟ وأما الجهمية والمعتزلة فيقولون : ليس له كلام قائم بذاته . بل كلامه مخلوق

منفصل عنه . والسكلابية يقولون : هو متكلم بكلام ليس له عليه قدرة ، ولا يكون بمشيئته . والأشعرية يقولون : إن الكلام معنى واحد لا يتبعض ولا يتعدد . وكل هذه أقوال باطلة مخالفة للكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة . مبتدعة مبنية على أصل واحد . وهو قولهم إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته . وهو أصل باطل مخالف للنقل والعقل . والقرآن الكريم يدل على بطلانه في أكثر من مائة موضع . وأما الأحاديث الصحيحة فلا يمكن ضبطها في هذا الباب . والصواب في هذا الباب وغيره ، هو مذهب سلف الأمة وأئمتها ؛ أنه سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته . وأن كلماته لا نهاية لها . وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى . وإنما ناداه حين أتى ، لم يناده قبل ذلك . وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد ، كما أن علمه لا يماثل علمهم وقدرته لا تماثل قدرتهم . وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته . ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته . ولا في ذاته شيء من مخلوقاته . وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد ، الذين عطلوا الذات والصفات أو الكلام أو الأفعال ، باطلة . وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول في الذات والصفات ، باطلة . هذا ما أفاده تقي الدين ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان .

وقال أيضا في قوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي) الآية : كلمات الله لا نهاية لها . وهذا تسلسل ، جائز كالتسلسل في المستقبل . فإن نعيم الجنة دائم لا نقاد له . فما من شيء إلا وبمده شيء بلا نهاية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أُمَّمَائِ الْهُكْمِ إِلَهُهُ وَاحِدٌ ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)
 « قل » أي لهؤلاء المشركين والكافرين من أهل الكتاب « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أُمَّمَائِ الْهُكْمِ إِلَهُهُ وَاحِدٌ » أي خصصت بالوحي وتميزت عنكم به . (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا

لِقَاءِ رَبِّهِمْ «أى يخاف المصير إليه، أو يأمل لقاءه ورؤيته، أو جزاءه الصالح وثوابه « فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا » أى فى نفسه، لاثقاً بذلك المرجو، وهو ما كان موافقاً لشرع الله «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ أَحَدًا» أى من خلقه إثمًا كذاً جليلاً. كفعلة الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه. ولا إثمًا كاخفياً. كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به أجراً من المدح وتحصيل المال والجاه. قال أبو السعود : وإيثارُ وضع المظهر موضع المضمرة فى الموضوعين ، مع التعرض لعنوان الربوبية ، لزيادة التقرير ، وللإشعار بعملية العنوان للأمر والنهى ، ووجوب الامتثال فعلاً وتركاً .

ودلت الآية - كما قال ابن كثير - على أن للعمل المتقبل ركنين : كونه موافقاً لشرع الله المنزل ، ومخلصاً أريد به وجهه تعالى ، لا يخلط به غيره . وتسمية الرياء شركاً أصغر ، ثبت فى السنة ، وصح فيها حبوط العمل بالرياء . ودخول الرياء فى الآية ، باعتبار عموم معناها ، وإن كان السياق فى الشرك الجلى ، للخطاب مع الجاحدين . والله تعالى هو الموفق والمعين .